عبد الله بن المقفع

عصره:

كان عصر ابن المقفع غريبة العصور، وقعت في أعوام معدودة منه أحداث خطيرة، ندر وقوع مثلها في عصور التاريخ. كانت فيه الخلافة الأموية في أعز أيامها، وليس في الأرض دولة إسلامية غيرها، فتداعت أركانها في شهور قليلة، على رسوخ قواعدها، وانبساط عمرانها، وما استطاع آخر خلفائها مروان بن محمد على بعد غوره وجلالة قدره أن يدفع عن دولته ما كنت الليالي تتمخض به.

فتم لبني هاشم ما سعوا إليه منذ سنين للاستيلاء على بلاد الإسلام، ونجحت جمعياتهم السرية بعد أن أخفقوا في طلب الملك مرات. وقضى بنو هاشم على بني أمية، وقد أبادوا في الوصول إلى أغراضهم مئات الألوف من الخلق، وأهلكوا حتى أبناء المهاجرين والأنصار، وحتى القراء والعلماء، وأخذوا الناس بالشبهة، وما فرقوا بين المجرم والبريء، ولم يرعوا في الصديق والعدو إلًّا ولا ذمة.

سفح السفاح أول خلفائهم الدماء، وظهر الانتقام من الأمويين بأخس صوره في شخصه وشخص إخوته وقواده، نزعوا الرحمة من قلوبهم، وما أخذتهم شفقة بإخوانهم في الدين والجنس، ونسوا كل فضل بينهم، وما أهمهم غير قيام أمرهم، حتى اغتبطوا بإقامة دولة فارسية بروحها، عربية بمظاهرها، وقلبوا ظهر المجن لأبناء عمهم من أبناء علي، وكانوا وإياهم يعملون للوصول إلى الخلافة سنين طويلة في العصر الأموي.

وبينا كان العباسيون يَنْعَمون بما تم لهم من الغلبة، كان أملهم يضعف في احتفاظ دولتهم ببلاد الأندلس وما إليها من أقصى المملكة، لأن صقر قريش عبد الرحمن بن هشام الأموي استصفى الأندلس بمن ضوى إليه من آل بيته، وبقايا السيوف وخدام دولتهم في الشرق؛ فأقام بهم في المغرب دولة قوية يرهب بأسها وسلطانها، وقطع الخطبة العباسية، وأباد جيشًا برمته بعث به العباسيون لمناجزته.

أسقط العباسيون قيادات العرب، فنشأت الشعوبية؛ أي التفرقة بين العرب والعجم، فنقض أول حجر من أساس بناء الدولة، ولما ترسخ قواعدها، قضى العباسيون بأيديهم على سلطانهم مذ أقاموا ملكهم بالجور والجبرية، واستسلموا لأبناء خراسان، ونظروا بعين الريبة إلى أبناء قحطان وعدنان.

أمعن عمّال العباسيين في إرهاق الرعية على ما لم يجوّزه دين ساوى بين الصغير والكبير، وعلى ما لم يجر مثله في الدولة السالفة، وأصبحت الأموال تجبى بأنواع من الظلم، وتصرف في ضروب من الإسراف، وفشا الترف حتى تجاوز كثيرًا مدى ما بلغته الرفاهية في عهد بني مروان، وكأن دولة بني العباس قامت لتفقر الضعفاء وتغني الأقوياء من السادة والقادة، كفعل الدول الجبارة في قديم الدهر وحديثه. ثم إن الأخلاق تبدلت تبعًا لتبدلها في الطبقات العليا، ولم يبق للدين تلك الروعة التي كانت له في عهد الراشدين والأمويين، فاستحالت بعض معانيه السامية من النفوس، وإن لم تتبدل مظاهره وأوضاعه.

وبدأ في هذا العصر نقل الكتب العلمية من لغات الفرس واليونان والسريان والهند؛ وكان تَقَدَّم بعض رجال بني أمية فشرعوا بهذه الحركة المباركة، وأخذ الخلفاء والأمراء يُفْضِلون على من تصدوا لنقل علوم القدماء، وحاول بعض من دخلوا في الإسلام يحملون أرواح أديانهم ومقالاتهم القديمة، إلقاء الشبَه في الدين؛ فقام رجال

كفاة يردون عليهم من طريق العقل، ويدافعون عن العقيدة في ذات الله وصفاته، ليدفعوا عن الإسلام شبه المانوية والديصانية والنصارى واليهود والملاحدة، وكان الناس منذ عهد التابعين يعالجون موضوعات دينية ما تخيلوا الخوض فيها من قبل، والمسلمون كانوا أولًا إلى الاكتفاء بالنقل والتسليم في العقائد، فأصبحوا يحتالون للاحتجاج على صحتها بأدلة عقلية، ونظر جديد، ووقع من حاولوا ذلك من العلماء بين نارين: نار شَبَّها عليهم أبناء دينهم ممن لم يرتضوا طريقتهم، وأخرى أوقدها من كان يراد إرجاعهم إلى الصواب، وأبو جعفر المنصور يحيط برعايته علماء الكلام، وكان من المقدمين فيهم.

وأخذت مذاهب الفرق الإسلامية كالشيعة والخوارج تتعين، وأصبح لكل فريق مذهب على حياله، وكانت مذاهبهم سياسية فغدت سياسية ودينية معًا، وأخذوا فعل أهل السنة، يسعون إلى تدوين مذاهبهم، وما خالفوا فيه الجماعة، واشتد الأخذ والرد بين أهل الحديث وأهل الرأي[1] اشتداده بين علماء النقل وعلماء العقل، وما كانت المذاهب المعتمدة هي المعوّل عليها وحدها في القضاء، بل يجتهد كل عالم بما يعلم، ويقضي بالكتاب والسنة والإجماع؛ ومنهم من يضيف إلى ذلك القياس والعرف. وتمت للموالي الذين أسلموا على أيدي رجال من العرب وغيرهم من أبناء الروم وفارس ومصر وإفريقية مشاركة قوية في هذه النهضة الدينية، على ما كان للنساطرة واليعاقبة والصابئة وغيرهم من أياد بيض في نقل علوم الطب والفلك والرياضيات والفلسفة وغيرها، وظهر التصوف بظهور أناس من النساك في خراسان والعراق، على مثال زهاد الهنود وغيرهم.

(١) أصحاب الرأي: هم أصحاب القياس لأنهم يقولون برأيهم فيما لم يجدوا فيه حديثًا أو أثرًا.

وسرى الفساد إلى اللغة وعَلقَتْ العجمة تذهب ببهجتها، واحتفظت البادية حتى آخر المائة الأولى بجمال لهجتها، فلا تكاد تعرف لها لحنًا، وعرض الفساد خاصة لألسن البلديين والمولدين، بمن نزل عليهم من صنوف الحمراء أو الأعاجم، يدخلون في دين الأمة، ويختلطون بالعرب؛ فهب العلماء يتلقون اللغة من ألسن أبنائها الأقحاح في جزيرة العرب، فدونوا ما أمكنهم تدوينه من ألفاظها وتراكيبها، ومن شعرها وأثرها؛ وأصبح الشعر الجاهلي خادمًا للكتاب والسنة، وتم وضع علم النحو والعروض وكثر التدوين.

كل هذا التبدل في الأوضاع والمنازع شاهده نابغة العجم في الإسلام عبد الله بن المقفع، ومرت ذكراه على خاطره، ونظر في مرآته بعينه؛ ومن هذه الأحداث ما كان يوم حدوثه حدثًا فتيًّا، ومنه ما شاهده في إبانه، وهو رجل تام الرجولية، يعرف المصدر والمورد، ويقيس الماضي بالحاضر، ويسعى لتقوى الحكومة الصالحة في شعب صالح، موحد المقاصد في شرعه ومدنيته، آخذًا في طريق سعادته حرًّا أبيًّا، ومسلمًا حنيفًا.

أصله ونشأته:

كان المبارك والد عبد الله بن المقفع من مجوس مدينة جُور في بلاد فارس، تولى بعض أعمال الخراج للحجاج بن يوسف الثقفي أيام إمارته على العراق وبلاد الشرق، فمد يده فيما قيل إلى أموال السلطان، فضربه الحجاج ضربًا مبرحًا حتى تقفعت يده؛ أي: تشنجت، فسُمِّي بالمقفع، وولد عبد الله، وكان اسمه أولًا زُوربه ويكنى أبا عمرو، في مدينة جور على الأغلب، وهي بلدة نزهة من أجمل المدن وأعمرها، على عشرين فرسخًا من شيراز، وإليها ينسب الورد الجوري الأحمر.

وربما كان لأول ما فتحت عينه عليه من مناظر الطبيعة الخلابة، وهو في بيت يسار ونعمة، أعظم التأثير في غرامه بالحسن والإحسان، وربما تأثر لما رأى في صباه بيت النار العظيم في بلده، يدخله أهله وجيرانه للعبادة، وقد كتب عليه بالفهلوية: إنه أُنفق عليه ثلاثون ألف ألف درهم.

لم تُعلم سنة مولد ابن المقفع بالتحقيق، ويقول الجهشياري: إنه كتب لدواوين عمر بن هبيرة على كِرمان. وعمر بن هبيرة عزله هشام بن عبد الملك عن العراق والشرق سنة خمس ومائة، وقال: إنه كتب أيضًا للمسبّح بن الحُوَّاري في نيسابور في ولاية عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، قُبيل زوال الدولة الأموية. ويحتمل بهذا أن يكون عبد الله بن المقفع ولد في عشر التسعين ظنًّا، ولا يُعقل أن يكتب لأحد قبل أن يتم له نحو خمس وعشرين سنة. وإذا قدرنا أن مقتل ابن المقفع كان سنة ثنتين وأربعين أو ثلاث وأربعين ومائة، فيكون عمره يوم قُتل في نحو الستين، خلافًا لمن قالوا: إنه قتل وهو ابن ست وثلاثين. وهذا التقدير منقوض بالبداهة، إذ لا يعقل أن يخلف ابن المقفع هذه الكنوز العظيمة من كتبه وكتاباته، وهو في مَيْعَة الشباب، وأن تُجمع النفوس على الإعتراف بتقدمه في صناعته، قبل أن تعلو به السن في الجملة، وأن تتهيأ له هذه التجارب العظيمة في الحياة وهو لم يتعد العقد الرابع.

وكما نحن في شك قليل من سنة مولد ابن المقفع، لا نعلم بالتحقيق أين تلقى تعليمه الأولي، في جور أم في البصرة. والأرجح أنه كان في جور، إذ من الصعب أن يثقف الثقافة الفارسية التي تثقفها في البصرة، وهي المدينة العربية بكل مناحيها، والأرجح أن والده توطن البصرة بعد أن أصبح ابنه عبد الله يافعًا، وأخذ الفصاحة عن أبي الجاموس ثور بن يزيد الأعرابي، وكان يفد البصرة على آل سليمان بن علي.

وحرص المبارك على تأديب ولده عبد الله، فكان يجمع له العلماء. ولنا أن نقول: إن البصرة كانت موطن درسه، ومدينة جور مسقط رأسه.

نشأ ابن المقفع بين ظهراني علماء أجلاء من المسلمين، وعرف الإسلام منذ عقل أكثر من معرفته دين المجوس أتباع زرداشت. وغاية ما كان له من صلة بهذا الدين، أنه رأى أهل بيته على دين المجوس، وهو مولود في بيت مجوسي، ودعته البيئة التي عاش فيها إلى أن يلقي نظرة على المجوسية التي انتقلت إليه بالإلف والعادة. ونظر في الإسلام الذي لقنه في الحداثة بالتربية والعشرة، ومازج أهله وسمع أعلام علمائه، فمالت نفسه إلى أن يدين به، فجاء إلى عيسى بن علي وكان كاتبه، وقال له: دخل الإسلام في قلبي وأُريد أن أُسلم على يدك، فقال له عيسى: ليكن ذلك غدًا بمحضر من القواد ووجوه الناس، ثم حضر طعام عيسى عشية ذلك اليوم، فجلس ابن المقفع يأكل ويزمزم، على عادة المجوس. فقال له عيسى: أتزمزم وأنت على عزم الإسلام؟ فقال: أكره أن أبيت ليلة على غير دين.

دان ابن المقفع بالإسلام عن عقيدة وعلم، وغدا في الكهولة نابه الذكر، وما زاده إعلانه الإسلام إلا ما أوجب عليه القيام به من التكاليف. وما كان له مطمع دنيوي يتطلبه بإسلامه، وهو الرجل الذي لابسه المسلمون على مجوسيته، وعهد إليه أمراء الإسلام بشئون دواوينهم، وائتمنوه على أسرارهم وأُعجبوا به مجوسيًّا، فلما امتلَّ ملة الإسلام زادوا به إعجابًا.

أدبه وأسلوبه:

كان تمكن ابن المقفع من الآداب الفارسية على مقدار ضلاعته من العربية، جمع بين الأديين، وفاق الأقران والنظراء بثقافته العربية إلى ما لم يكد يصل إليه أحد من

معاصريه. ساعده تمكنه من الفارسية على الرسوخ في العربية، وأتى لغة تربيته الحديثة بأساليب جديدة، وطرق في التفكير قلَّ أن عُرفت قبله.

يقول صاحب الصناعتين: «إن من عرف ترتيب المعاني واستعمال الألفاظ على وجوهها في لغة من اللغات ثم انتقل إلى لغة أخرى، تهيأ له من صنعة الكلام مثل ما تهيأ له في الأولى. ألا ترى أن عبد الله الكاتب -ابن المقفع- استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها لمن بعده من اللسان الفارسي، فحولها إلى اللسان العربي، فلا يكمل لصناعة الكلام إلا من يكمل لإصابة المعنى، وتصحيح اللفظ، والمعرفة بوجوه الاستعمال». ولا شك أنه حفظ القرآن ودرس إعجازه وعرف محكمه ومتشابهه، وقرأ ما شاء من دواوين شعراء الجاهلية، وأدرك معانيهم وتدبر ألفاظهم. وقيل: إنه تخرج في البلاغة بخطب علي بن أبي طالب، وما نخال ذلك كافيًا في بلوغ الغرض لقلة المأثور من تلك الخطب يومئذ.

كان ابن المقفع من أول من ترجم في الملة الإسلامية من اللغة الفارسية إلى العربية، فنقل كتب أرسطو المنطقية الثلاثة، وهي كتاب قاطاغورياس، وكتاب باري أرمنياس، وكتاب أنالوطيقا؛ وترجم المدخل إلى كتاب المنطق المعروف بالإيساغوجي لفرفوريوس الصوري؛ وكتاب كليلة ودمنة، وترجم كتاب «خداينامه» في السير، وكتاب «آيين نامه»، وكتاب «مزدك»، وكتاب «التاج» في سيرة أنوشروان. ويقول المسعودي: إن كتاب «آيين نامه» أو عادات الفرس وأنظمتهم، هو كتاب كبير يبلغ آلافًا من الصفحات، وأنه ترجم أيضًا كتابًا اسمه كتاب «الكيكيين»، وهو من الكتب المعظمة عند الفرس، وفيه سير ملوكهم وآبائهم. ترجم كل هذا عن الفهلوية، لغة الفرس القديمة، وكان أصل بعضها نقل إليها من اليونانية والهندية.

ولم يبق من كل هذه الأسفار سوى كليلة ودمنة، مع ما ألفه من الأدب الكبير والأدب الصغير واليتيمة؛ واليتيمة كتابان على ما يقول الباقلاني، أحدهما يتضمن حكمًا منقولة، والآخر في شيء من الديانات. ويقول طيفور: إنها من الرسائل المفردات اللواتي لا نظير لها ولا أشباه، وهي أركان البلاغة، ومنها استقى البلغاء، لأنها نهاية في المختار من الكلام، وحسن التأليف والنظام، فإن الناس جميعًا مجمعون أنه لم يعبر أحد عن مثلها، ولا تقدمها من الكلام شيء قلبها. ويقول ابن النديم: إن اليتيمة وكليلة ودمنة من الكتب المجمع على جودتها.

واختلفوا في كون ابن المقفع نقل كليلة ودمنة عن الفارسية، والأرجح أنه كتبه مباشرة، وقد أقر في المقدمة أنه كتب بعض فصوله ونقل الباقي عن غيره؛ أتى ذلك لينجو من تبعه ما ورد فيها، ويسلم من نقمة الملوك إذا عدوا ما فيه تعريضًا باستبدادهم. ويقول الجاحظ: ونحن لا نستطيع أن نعلم أن الرسائل التي في أيدي الناس للفرس أنها صحيحة غير مصنوعة، وقديمة وغير مولدة، إذا كان مثل ابن المقفع وسهل بن هارون وأبي عبيد الله وعبد الحميد وغيلان وفلان وفلان لا يستطيعون أن يولّدوا مثل تلك الرسائل، ويضعوا مثل تلك السير. فالجاحظ كان إذًا في ريب من نسبة هذه الكتب التي زعم أصحابها أنهم ترجموها عن الفارسية، لأن مثلهم في افتناتهم في البيان لا يتعذر عليهم وضع أشباهها.

وضُرب المثل في البلاغة برسالة اليتيمة في طاعة السلطان، حتى قال أبو تمام في مدح الحسن بن وهب:

ولقد شهدتك والكلام لآلئٌ ... تُؤم[1] فبكر في الكلام وثيِّبُ

فكأن قُسًّا في عكاظ يخطب ... وكأن ليلى الأخيلية تندب

(١) تؤاتم النجوم واللؤلؤ: ما تشابك منها.

وكُثير عزة يوم بين ينسب وابن المقفع في اليتيمة يسهب

ذكروا أن ابن المقفع كان إذا أراد الشعر صنعه، بيد أنه لم يشغل به نفسه لانصرافه إلى النثر؛ والواقع أنه ما كان يستطيع من الشعر إلا ما لا يذكر مثله من مثله. وقال عن نفسه: «الذي أرضاه لا يجيئني، والذي يجيئني لا أرضاه» وقيل له: «لِمَ لا تطيل القصائد؟ قال: لو أطلتها عرف صاحبها». قال صاحب الصناعتين: يريد أن المُحْدَث يتشبه بالقديم في القليل من الكلام، فإذا طال اختل، فعرف أنه كلام مولد. وقد روى له أبو تمام في الحماسة ثلاثة أبيات يرثي بها يحيى بن زياد، وقيل: ابن أبي العوجاء، وهي:

رزئنا أبا عمرو ولا حيَّ مثله فلله ريب الحادثات بمن وقع
فإن تكُ قد فارقتنا وتركتنا ذوي خلة ما في انسداد لها طمع
لقد جرَّ نفعًا فقدنا لك أننا أمِنَّا على كل الرزايا من الجزَع

لم يُدان ابن المقفع في الكتابة المرسلة مُدان، فهو فيها المفرد العلم؛ اللهم إلا بضعة من الرجال، ومنهم سهل بن هارون وعمرو بن مسعدة، أتى الدهر على ما أنشأته أقلامهم إلا قليلًا؛ وعلى ذلك أجمع العارفون من القدماء. ولقد سمع أبو العيناء بعض كلام ابن المقفع فقال: كلامه صريح، ولسانه فصيح، وطبعه صحيح، كأن بيانه لؤلؤ منثور، ووشي منشور، وروض ممطور. وذكر آخر فقال: ألفاظه معان، ومعانيه حكم.

وشهد له الجاحظ في البيان والتبيين بالبلاغة، ونقل عنه غير مرة. وقال الأصمعي: إنه قرأ آداب ابن المقفع فلم يرَ فيها لحنًا إلا في موضع واحد وهو قوله: العلم أكبر من أن يحاظ بكله فخذوا البعض. أي أنه أدخل الألف واللام على البعض، وكان المتقدمون من أهل العلم ينكرون إدخالهما على (كل) و(بعض).

ولا نطيل بنقل ما قاله أعيان البيان في بلاغة ابن المقفع، فإن كتابته تدل على نفسها، ولم يعرف لمتقدم ولا لمتأخر أن نقل إلى اللسان العربي شيئًا في الأدب والعلم، لا تحسُّ فيه أثر اللغة المنقول عنها إلا ابن المقفع. وكانت الترجمة غالبة عليه في أول حياته، فلما استوت أدواته أنشأ ينشئ رأسًا، فبذَّ البلغاء في الناحيتين: في الترجمة والتأليف. واختار أن يترجم لأول نشأته ما ينقص هذه اللغة التي أحبها، وكان ذلك السبب في خلوده، والإعجاب به في الطورين؛ كان يعتقد أن الحضارة العربية لا تتفوق إلا إذا أدمجت فيها ما عملت فيه عقول الأمم قبلها، ويرى أن الجديد صِنو القديم، يتكافآن ويتساندان.

سرُّ تأثير ابن المقفع في مختلف العصور سلامته وجزالته، نصح باتباع طريقته فيما قاله لأحد الكتاب: إياك والتتبع لوحشيِّ الكلام، طمعًا في نيل البلاغة، فإن ذلك هو العيُّ الأكبر. وقال لآخر: عليك بما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السِّفلة. وقال: البلاغة إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها. وقال: إذا أعطيت كل مقام حقه، وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام، فلا تهتمَّ لما فاتك من رضا الحاسد والعدو، فإنهما لا يرضيهما شيء، وأما الجاهل فلست منه وليس منك، ورضا جميع الناس شيء لا تناله، وقد كان يقال: «رضاء الناس شيء لا ينال». وقال: إن خير الأدب ما حصل لك ثمره، وبان عليك أثره. وسئل: ما البلاغة؟ فقال: اسم لمعان تجري في وجوه كثيرة: فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما كاد يكون شعرًا، ومنها ما يكون سجعًا، ومنها ما يكون ابتداءً، ومنها ما يكون جوابًا، ومنها ما يكون في الحديث، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون خطبًا،

ومنها ما يكون رسائل، فعامة هذه الأبواب الوحي[١] فيها، والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة.

وبعد؛ فكأن ألفاظ ابن المقفع منخولة في منخل دقيق نُفي الزؤان مما يحمل، أما التراكيب فهي موضع العجب في رصف بعضها إلى جانب بعض على غاية الإحكام، ثم هو ليس في ألفاظه بالبخيل ولا بالمسرف، يعطي منها بمقدار ما يلبس معانيه حلة قشيبة، فيجمع بين الجزالة والوضوح والإيجاز. ومعانيه كلها ناصعة وألفاظه كلها فصيحة، على أن اللفظ مهما سلس وبعد عن الوحشية والسوقية لا يعذب إلا بضم أجزائه في سلك واحد، لتصح المعاني، وهي سر البلاغة والفصاحة والروعة، وهذا كان ظاهرًا في كلام ابن المقفع، هو يمشي من صفاء الطبع على عرق عريق، ويحاول أبدًا نقل فكره إلى من يتلو كلامه، واضحًا جليًّا، فكأنه يتوخى الإفهام أولًا، وبلاغته في كثرة إفهامه. وما كان يخفل بالسجع جملة، اللهم إلا ما أتى به بيانه عفوًا في بعض ثنايا الكلام، فكأن السجع -وهو نادر جدًّا في أدبه- متطفل على قلمه عارض عليه، والأصل في إنشائه المرسل الرشيق.

كان ابن المقفع كثيرًا ما يقف إذا كتب، فقيل له في ذلك فقال: إن الكلام يزدحم في صدري فأقف لتخيره. فهو يتخير كلامه ويتخير موضوعه أيضًا، وما خاض إلا فيما توسع في علمه، وما وقع له في رسائله، وفي كتاب كليلة ودمنة من الحكم والأفكار مما يتأدب به كل إنسان، ويصلح لكل زمان ومكان، وينفع أهل كل نحلة ولسان، وكله شاهد بسعة بصره في كلام العرب، وبطول تبصره في دراسة أحوال المجتمع، كان متبحرًا في أدب أمته، وكشف خوالج نفوسها، وكان مؤمنًا بما يقول،

(١) الوحي: الإشارة والكتابة والمكتوب والرسالة والإلهام والكلام الخفي وكل ما ألقيته إلى غيرك. وكل هذه المعاني تصلح هنا.

هاضمًا ما تعلم، يغترف بيانه من صميم القلب، فجادت لذلك طريقته، وأسر القلوب أسلوبه، وما خرج عن قانون الفطرة في كل ما خطه بنانه، وقذف به جنانه، ليس في كلامه مقال لعائب، ولا في إطنابه واقتضابه مطعن لطاعن، أثَّر بإبداعه في النفوس بما كتب، لأن الناس في حاجة إلى مثل كلامه، لا يستغنون عن الأخذ به، ولأنه أتاهم بما تدركه عقولهم من أيسر سبيل؛ والأمور تعظم في النفوس بقدر وقعها فيها، وشدة حاجتها إليها.

أثرت الثقافة الفارسية فيما كتب ابن المقفع أي تأثير، وقد أخذ منها ما لا تأباه السليقة العربية وأدمجه فيها؛ وربما كان حظه من التربية البيتية الأهلية أقل من حظه من الثقافة الفرعية، وفرعه على كل حال أعظم من أصله: فرعه اصطنعه بيده ورباه على أيدي عظماء، وأصله أورثته إياه بيئته وبيته؛ أتى من قديمه بالقدر الذي لا يمكن أن يتخلص منه من كان في مثل شأنه، وحمل إلى جديده أشياء فيها مسحة منقطعة القرين، وراعى في إبراز طريفه حالة من يكتب لهم، في زمن كانت البلاغة أقصى ما يتطالّ إليه الكاتب والمفكر والمصنف. وما كان لنقاد كلامه أن يحسِّنوه لو لم يجدوا فيه آثار إحسان، وكان من السهل عليهم أن يزيفوه لو بدا لهم فيه مغمز.

والغالب أن الناحية الضعيفة في ابن المقفع كانت في تخلفه في علم الكلام؛ أي: التوحيد، قال الجاحظ فيه: إنه كان يتعطاه ولا يحسن منه قليلًا ولا كثيرًا، واعترف له مع ذلك بأنه كان ضابطًا لحكايات المقالات، قال: «ولا يعرف من أين غُرَّ المغتر، ولا وثق الواثق، وإذا أردت أن تعتبر ذلك إن كنت من خُلَّص المتكلمين ومن النظارين، فاعتبر ذلك بأن تنظر في آخر رسالته الهاشمية، فإنك تجده جيد الحكاية لدعوى القوم، رديء المدخل في مواطن الطعن عليهم، وقد يكون الرجل يحسن الصنف والصنفين من العلم فيظن بنفسه عند ذلك، أنه لا يحمل عقله على شيء إلا بَعُدَ به».

وليس من المستغرب ألا يجيد ابن المقفع علم الكلام، ولكن المستغرب أن يحمل الجاحظ عليه وعلى الخليل بن أحمد صاحب العروض، ويرمي هذا بالجهل بهذا العلم، بعبارة جارحة، وقال فيه كما قال في ابن المقفع: «إنه من أجل إحسانه في النحو والعروض وضع كتابًا في الإيقاع وتراكيب الأصوات، وهو لم يعالج وترًا قط، ولا مسّ بيده قضيبًا قط، ولا كثرت مشاهدته للمغنين؛ وكتب كتابًا في الكلام، ولو جهد كل بليغ في الأرض أن يتعمد ذلك الخطأ والتعقيد لما وقع له ذلك، ولو أن ممرورًا استفرغ قوى مِرَّته في الهذيان لما تهيأ له مثل ذلك، ولا يتأتى ذلك لأحد إلا بخذلان من الله تعالى».

ونُقل عن أبي بكر الأصم، وهو من المعتزلة أيضًا، أنه ذكر ابن المقفع فقال: ما رأيت شيئًا إلا وقليله أخف من كثيره إلا العلم، فإنه كلما كثر خف محمله، ولقد رأيت عبد الله بن المقفع هذا في غزارة علمه وكثرة روايته، كما قال عز وجل: {كمثل الحمار يحمل أسفارا}؛ قد أوهنه علمه، وأذهله حلمه، وأعمته حكمته، وحيرته بصيرته. ورأينا نحن بما قال خصوم ابن المقفع أنهم مع دعواهم عليه الجهل في علم الكلام، يعترفون له بغزارة العلم وكثرة الرواية، وأنه يحسن ضبط حكاية المقالات، ويجيد الحكاية لدعوى أهلها؛ وتسفيههم لرأيه لا يقدح فيه كثيرًا، إلا لأنه عانى علمًا لا يحسنه. قال محمد بن سلام: سمعت مشايخنا يقولون: لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد ولا أجمع، ولا كان في العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع.

وإذا سلمنا مع الجاحظ أن ابن المقفع لم يكن حجة في الكلام، فقد رأيناه يشهد له بالفضل، ويقول: إنه كان مقدمًا في بلاغة اللسان والقلم والترجمة واختراع المعاني وابتداع السير؛ أي أنه كان كاتبًا خطيبًا مترجمًا واسع الخيال يخترع ويبتدع؛ وعدَّه من

المعلمين ثم من البلغاء المتأدبين؛ نظمه في سلك المعلمين لأنه سبق له أن أدَّب أحد أولاد الأمراء من بني إسماعيل بن علي.

تُرى؛ ونحن يعنينا من ابن المقفع بلاغته؛ هل نقل حِكَمه عن غيره، أو كان أبا عذرتها، ومفترع طريقتها؟ والأرجح أنه نقل، ولكن بأسلوبه المعجب المطرب، نقل ما ألبسه ثوبًا جميلًا من حَوْكه. وقد يقل الإبداع في الأفكار، وهي تأخذ من نفسك بما أُلبِست من حلة شائقة يتعذر على كل أحد محاكاتها، كالطعام الجيد تتألف مواده من أشياء يعرفها الناس، وقلَّ أن يحسن تحضيرها إلا طاهٍ رفيق يركّب فيها كل شيء على مقادير معلومة، فتأتي طيبة في المذاق.

أعظم ابن المقفع حكمة القدماء، وذهب إلى أنهم سبقوا إلى كل فضل، وأن الواجب الأخذ عنهم، وأن من بعدهم لم يبتدعوا أصولًا جديدة؛ وهاك رأيه الصريح غير مُجمجم فيه ولا مُتعتع، قال: «فمنتهى علم عالمنا في هذا الزمان أن يأخذ من علمهم، وغاية إحسان محسننا أن يقتدي بسيرتهم، وأحسن ما يصيب من الحديث محدثنا أن ينظر في كتبهم، فيكون كأنه إياهم يحاور، ومنهم يستمع؛ غير أن الذي نجد في كتبهم هو المنتخل من آرائهم، والمنتقى من أحاديثهم، ولم نجدهم غادروا شيئًا يجد واصف بليغ في صفة له مقالًا لم يسبقوه إليه، لا في تعظيم الله عز وجل وترغيب فيما عنده، ولا في تصغير للدنيا وتزهيد فيها، ولا في تحرير صنوف العلم، وتقسيم أقسامها وتجزئة أجزائها، وتوضيح سبلها، وتبيين مآخذها؛ ولا في وجوه الأدب، وضروب الأخلاق؛ فلم يبق في جليل من الأمر لقائل بعدهم مقال، وقد بقيت أشياء من لطائف الأمور فيها مواضع لصغار المفطن، مشتقة من جسام حكم الأولين وقولهم؛ ومن ذلك بعض ما أنا كاتب في كتابي هذا من أبواب الأدب التي يحتاج إليها الناس».

وقوله: إن القدماء لم يغادروا شيئًا لا في تعظيم الله عز وجل وترغيب فيما عنده، ولا في تصغير للدنيا وتزهيد فيها... إلخ، قول فيه نظر؛ ولعله مما قاله قبل إسلامه، ولا يعقل أن تحوي كتب زرادشت وغيرها من الكتب أمورًا في تعظيم الخالق وتصغير قدر الدنيا أكثر من القرآن، فهو المنسوج كما قال ابن رُبَّن «بالتوحيد والتهاليل والتحاميد والسنن والشرائع والخبر والأثر والوعد والوعيد والرغبة والرهبة والنبوات والبشارات بالأمور الجملية التي تليق بجلال الله وحكمته وطَوْله، وبسط الأمل في الغفران والرأفة وقبول التوبة والمعاني التي ترتاح إليها النفس وتستريح إليها الآمال... ولذلك استحق أن يقال: إن هذا في الكتاب آية من آيات النبوة إذ لم يكن له نظير مذ خُلق الخلق؛ وخُطَّ في الرّق».

إن دعوى ابن المقفع أنه أخذ من الماضين حكمتهم، وأنهم لم يتركوا بعدهم مقالًا لقائل، لا يمنع إذا تدبرنا كلامه أن نجد له كثيرًا من الآراء المبتكرة المبتدعة، استفادها من المجتمع الذي عاش فيه، وثقفها من الحوادث التي مرت به، وأوحاها إليه ما عاناه من أبناء دهره، وشهده من صعاليكه وملوكه؛ كان عصره كتابًا مفتوحًا، اقتبس منه كل ما فيه حكمة تنجع في تقويم معوج الأخلاق، وسنَّ سنة الفضائل؛ وعلمنا منه أنه كان من المحافظين يحتفظ بتراث الأجداد، ولا يسير إلى التجدد إلا بقدر معلوم.

أما رأي ابن المقفع في العرب، فهو لا يقل عن رأي أعظم المتعصبين لهم من أبنائهم كالجاحظ. روى أبو العيناء الهاشمي عن القَحْذَمِي عن شبيب بن شيبة قال: كنا وقوفًا بالمِرْبد، وكان المربد مألف الأشراف، إذ أقبل ابن المقفع، فبششنا به وبدأناه بالسلام، فرد علينا السلام، ثم قال: لو ملتم إلى دار نيروز وظلها الظليل، وسورها المديد، ونسيمها العجيب، فعودتم أبدانكم تمهيد الأرض، وأرحتم دوابكم من جهد

الثقل، فإن الذي تطلبونه لم تُفلتوه، ومهما قضى الله لكم من شيء تنالوه، فقبلنا وملنا؛ فلما استقر بنا المكان قال لنا: أي الأمم أعقل؟ فنظر بعضنا إلى بعض، فقلنا لعله أراد أصله من فارس، فقلنا: فارس! فقال: ليسوا بذاك، إنهم ملكوا كثيرًا من الأرض، ووجدوا عظيمًا من الملك، وغلبوا على كثير من الخلق، ولبث فيهم عَقد الأمر، فما استنبطوا شيئًا بعقولهم، ولا ابتدعوا باقي حكم في نفوسهم. قلنا: فالروم. قال: أصحاب صنعة. قلنا: فالصين. قال: أصحاب طُرفة. قلنا: الهند. قال: أصحاب فلسفة. قلنا: السودان. قال: شر خلق الله. قلنا: الترك. قال: كلاب مختلسة. قلنا: الخزر. قال: بقر سائمة. قلنا: فقل. قال: العرب. قال: فضحكنا. فقال: أما إني ما أردت موافقتكم، ولكن إذا فاتني حظي من النسبة فلا يفوتني حظي من المعرفة؛ إن العرب حكمت على غير مثال مُثّل لها، وآثار أثرت: أصحاب إبل وغنم، وسكان شعر وأدم، يجود أحدهم بقوته، ويتفضل بمجهوده، ويشارك في ميسوره ومعسوره، ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة، ويفعله فيصير حجة، ويحسِّن ما شاء فيَحْسُن، ويقبح ما شاء فيقبح، أدبتهم أنفسهم، ورفعتهم هممهم، وأعلتهم قلوبهم وألسنتهم؛ فلم يزل حباء الله فيهم، وحباؤهم في أنفسهم حتى رفع لهم الفخر، وبلغ بهم أشرف الذكر، وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر، وافتتح دينه وخلافته بهم إلى الحشر، على الخير فيهم ولهم. فقال: {إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين}، فمن وضع حقهم خسر، ومن أنكر فضلهم خصم، ودفع الحق باللسان أكبت للجنان. اهـ.

إنا إذا حكمنا بالقليل الباقي من رسائل ابن المقفع وكتبه، وهي كافية في إنارة وجوه الحكم عليه؛ نجزم بأنه فيما يكتب يتروّى لا يتسرع ولا يبتده، وقد يرتجل وينشئ أفكاره وأفكار غيره إنشاءً، يصبها نُقرة واحدة في قالب واحد، ثم هو في ذاته بعيد عن تزكية النفس، لا يفاخر ولا يتمنجد، ولا يناقش خصمًا، يقول ما يعلم، لا

يأبه لغير ذلك؛ ولقد تجلى النبل والعظمة في قوله وفعله، وأن الحق طَلِبَته، لا يبالي عذل عاذل، ولا صولة متطاول، لا يصانع من يصانعه، ولا يماري من ماراه، يتلطف في الأداء، ويربأ بنفسه عن مماحكات المماحكين، ومناقشات المجادلين، هو جد عارف بأن للعلم سياسة، كما للناس سياسة، وأن للأدب حدودًا لا يصح لمن يكتب فيها تعديها، وهواه محصور في أن يحمل للأمة ما ينفعها، وتُجمِع على استحسانه، وإن تخالفت مشاربها، ولسان حاله هذا ما جهدت فيه فعرفته وصنفته، وأنتم أيها الناس خذوا منه أودعوه، فإن له أقوامًا يفهمونه ويعونه، أنتم إن لم تريدوه، فالذين كتب لهم راغبون فيه دونكم.

وسواء كانت رسائل ابن المقفع وكتبه مما نقله عن غيره، أو ابتدعه من عند نفسه، فالظاهر أنه ما توخى إلا ما نقل ما عرفه عن الأمم الأخرى، ولم يحفل بما دوَّنه العرب من أخبارهم وحكمهم، ذلك لأن لهذا رجالًا لم يقصروا في هذه السبيل، وإنما أراد، وهو الفارسي النَّابه، أن ينقل للعرب ما عند فارس والهند والروم من العلوم والحكم، فأتى ببضاعة جديدة إلى الأسواق العربية، وافقت هوى أرباب الذوق وعشاق الطرائف؛ فاقتناها مَن اقتناها، وانتفع بها مَن انتفع. فطريقته إذًا في العربية جديدة زاد بها ثروة الآداب، ووسع دائرة التفكير، في أمة تلقفت بأساليبها ما عند غيرها. فكان له المنّة على الأدب من وجهين: الإتيان بجديد رائع، وابتداع هذا الأسلوب الفتان.

نقل شيئًا في الفلسفة والعلوم القديمة، وفي الأدب والحكم وسير الملوك وتدبير الممالك، وترجم ما ينفع العرب، وزهد كغيره من التراجمة في نقل آداب الأمم الأخرى، فلم يترجم الإلياذة مثلًا لأنها لا تتفق وأذواق العرب؛ وهم أمة تتناغى

ببلاغتها، وتبعد عن الخيال، وتبالغ في المحسوسات. فكان عمله ملائمًا لروح الأمة التي أنشأته، وعلى ذلك جرى النقلة بعده.

يتراءى لك وأنت تمعن النظر في تقايد[1] ابن المقفع أنك ماثل أمامه يفيض عليك من حكمته على طريقته. والكلام كما قال العسكري: «يحسن بسلاسته وسهولته ونصاعته، وتخير ألفاظه، وإصابة معناه، وجودة مطالعه، ولين مقاطعه، واستواء تقاسيمه، وتعادل أطرافه، وتشبه أعجازه بهواديه[2]، وموافقة مآخره لمباديه، مع قلة ضروراته بل عدمها أصلًا، حتى لا يكون لها في الألفاظ أثر، فتجد المنظوم مثل المنثور في سلاسة مطلعه، وجودة مقطعه، وحسن رصفه وتأليفه؛ وكمال صوغه وتركيبه، فإذا كان الكلام كذلك كان بالقبول حقيقًا، وبالتحفظ خليقًا».

أخلاقه ومصيره:

إن من نشأ في سعة من العيش، وأخذ عن عظماء في العلوم والآداب، وعاش زمنًا بين كبار في الإمارة والسياسة، لا بد أن تُبقي بيئته الراقية في نفسه من الصفات ما يسمو به إلى الفضائل والمكارم. وقد قال فيه من ترجموا له: «إنه كان سريًّا سخيًّا، يطعم الطعام ويتسع على كل من احتاج إليه»، وقالوا: إنه لم يبق في الإسلام من أهل فارس «شريف يذكر إلا أن يكون عبد الله بن المقفع والفضل بن سهل»، وفي هذه النعوت جماع من صفات السراوة.

قيل: إنه قد أفاد مالًا لما كان يكتب لابن هبيرة على كرمان، فأدّاه ما جبل عليه من حب الخير أن يُجري على جماعة من وجوه أهل البصرة والكوفة ما بين خمسمائة درهم إلى ألفين في كل شهر؛ ولم يقف جوده عند هذا الحد من التوسعة على من

(١) التقايد كالتعاليق: ما يقيده المرء في دفاتره من الفوائد.

(٢) الهادي: العنق، والهوادي: الجمع.

يُعرف في البصرة والكوفة، بل أُثرت له حوادث في السخاء دلت على أنه كان متصفًا بالأخلاق الصالحة التي طالما وصفها للناس في رسائله؛ وهو القائل: «ابذُل لصديقك دمك ومالك، ولمعرفتك رِفدك ومحضرك، وللعامة بِشرَك وتحنّنك، ولعدوك عدلك، واضنن بدينك وعرضك عن كل أحد».

كانت بين عمارة بن حمزة[1] وبين ابن المقفع مودَّة، فأنكر أبو جعفر المنصور على عمارة شيئًا ونقله إلى الكوفة. وكان ابن المقفع إذ ذاك بها، فكان يأتيه ويزوره، فبينا هو ذات يوم عنده ورد على عمارة كتاب وكيله بالبصرة، يعلمه أن ضيعة مجاورة لضيعته تباع، وأن ضيعته لا تصلح إن ملكها غيره، وأن أهلها قد بذلوا له ثلاثين ألف درهم، وأنه إن لم يبتعها فالوجه أن يبيع ضيعته، فقرأ عمارة الكتاب وقال: ما أعجب هذا، وكيلنا يُشير علينا بالابتياع مع الإضافة والإملاق، ونحن إلى البيع أحوج. وكتب إلى وكيله ببيع ضيعته والانصراف إليه. وسمع ابن المقفع الكلام، وانصرف إلى منزله وأخذ سُفْتُجة إلى الوكيل بثلاثين ألف درهم، وكتب إليه على لسان عمارة: إني قد كنت كتبت إليك ببيع ضيعتي ثم حضر لي مال، وقد أنفذت إليك سفتجة فابتع الضيعة المجاورة لك، ولا تبع ضيعتي، وأقم مكانك، وأنفذ الكتاب بالابتياع إليَّ. ووجَّه الكتاب إليه مع رسول قاصد. فورد على الوكيل وقد باع الضيعة، ففسخ البيع وابتاع الضيعة المجاورة، وكتب إلى عمارة يذكر الأمر، وأنه قد صارت له ضيعة نفيسة. فلما قرأ عمارة الكتاب أكثر التعجب، ولم يعرف السبب، وسأل عمن حضر عند ورود كتاب الوكيل، فقيل: ابن المقفع، فعلم أنه من فعله، فلما صار إليه بعد أيام

(١) يعد عمارة بن حمزة الكاتب، وهو من ولد أبي أبابة الأنصاري مولى عبد الله بن العباس، في بلغاء الناس مع ابن المقفع وعمرو بن مسعدة وأحمد بن يوسف، وكان معدودًا في سراة الناس، وله تصانيف كثيرة مفقودة.

وتحدثا قال عمارة: بعثت بتلك الثلاثين ألف درهم إلى الوكيل وكنا إليها هاهنا أحوج. قال: فإن عندنا فضلًا، وبعث إليه بثلاثين ألفًا أخرى.

وبلغ ابن المقفع مرة أن جاره يبيع دارًا له لدين ركبه، وكان يجلس في ظل داره؛ فقال: ما قمت إذًا بحرمة ظل داره إن باعها معدمًا، وبتُّ واجدًا. فحمل إليه ثمن الدار وقال: لا تبع. وقال سعيد بن سِلْم: قصدت الكوفة فرأيت ابن المقفع فرحب بي وقال: ما تصنع هاهنا؟ فقلت: ركبني دين فأُحوجت إلى الانزعاج؛ فقال: هل رأيت أحدًا؟ فقلت: ابن شُبرمة؛ وعرفته حالي. فقال: أنا أُكلم الأمين ليضمك إلى أولاده فيكون لك نفع؛ فقال: أف لذلك؟ أيجعلك مؤدبًا في آخر عمرك؟ أين منزلك؟ فعرفته. فأتاني في اليوم الثاني وأنا مشغول بقوم يقرءون عَلَيَّ، ومعه منديل فوضعه بين يدي، فإذا فيه أسورة مكسورة ودراهم متفرقة، مقدار أربعة آلاف درهم، وحينئذ زمان المنصور، وفي الدراهم ضيق، فأخذت ذلك ورجعت به إلى البصرة واستعنت به.

روى الحكاية الأولى الجهشياري، وروى الثانية ابن قتيبة، وروى الثالثة الراغب الأصفهاني. أليس لنا أن ندعي بعد ذلك أن ابن المقفع كان يعمل بما يقول، ويهون عليه أن يبذل لصديقه دمه وماله، وأنه طبع على مكارم الأخلاق، يحب الإيثار ويبغض الأثرة، يفعل الخير ما استطاع، ويبذل حبَّ البذل، لا عن رغبة ولا عن رهبة؟

ولع ابن المقفع بالجمال والطرب، فكان يغشى معاهد الصفاء، ويجتمع إلى القينات، ويطرب في غير محرَّم، ويتعاطى قليلًا من الشراب من نبيذ العراق الذي أفتى بحله فقاؤهم. ويقول:

سأشرب ما شربت على طعامي ... ثلاثًا ثم أتركه صحيحا
فلست بقارف منه أثامًا[١] ... ولست براكب منه قبيحا

فابن المقفع كان إذًا يأخذ من الحياتين بنصيب على نحو ما قال: «لا عقل لمن أغفله عن آخرته ما يجاده من لذة دنياه؛ وليس من العقل أن يحرمه حظه من الدنيا بَصَرُه بزوالها، وعلى العاقل ما لم يكن مغلوبًا على نفسه أن لا يشغله شغل عن أربع ساعات: ساعة يرفع بها حاجته إلى ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفضي فيها إلى إخوانه وثقاته الذين يصدقونه عن عيوبه، وينصحونه في أمره، وساعة يخلي فيها بين نفسه وبين لذتها مما يَحِلُّ ويَجْمُلُ، فإن هذه الساعات عون على الساعات الأخر، وإن استجمام القلوب وتودعها[٢] زيادة قوة لها وفضل بلغة. وعلى العاقل أن لا يكون راغبًا إلا في إحدى ثلاث خصال: تزود لمعاد، أو مرمة[٣] لمعاش، أو لذة في غير محرَّم».

واتلُ بعد هذا حكايتين دوَّنهما الأصفهاني في الأغاني، تنمان أيضًا عن كرم وإيثار. قال: إن ابن المقفع حضر يومًا مأدبة فيها معن بن زائدة المشهور بكرمه، وفيها جوارٍ يغنين، فغنت واحدة ابن زائدة فأعطاها ألف دينار، وغنت أخرى ابن المقفع، فأعطاها مائة ألف درهم؛ أي عشرة آلاف دينار، فقال معن: «لله در الفارسي فقد برّز علينا». وروى أيضًا أنه اجتمع عند ابن رامين، معن زائدة ورَوْح بن حاتم وابن المقفع؛ فلما تغنت الزرقاء وسُعدة بعث معن إليها بِدْرة[٤] فَصُبَّت بين يديها، وبعث

(١) الأثام: كسحاب العقوبة ويكسر كالمأثم، وقرف عليهم: بغى وفلانًا عابه أو اتهمه؛ ولعياله كسب. وخلط وكذب.

(٢) التودع: الخفض والدعة.

(٣) المرمة: الاصلاح.

(٤) البدرة: كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم، أو سبعة آلاف دينار.

روح فجيء ببدرة فصبها بين يديها، ولم يكن عند ابن المقفع دراهم، فبعث فجاء بصك ضيعته وقال: هذه عُهدة ضيعتي خذيها، فأما الدراهم فما عندي منها شيء.

وإذا صحت هاتان القصتان دلتا، مع ما فيهما من إسراف ومبالغة في مقدار الجائزتين، على عظم نفس ابن المقفع، وطيب عنصره في المكرمات والمروءات، فإنه أبى أن يكون دون معن بكرمه، وحاول أن يُرْبي عليه أن كان له مال. ولما دعته الدواعي في المرة الثانية أن يجاري رفاقه أيضًا؛ وقد صَفَرت كفه من الدراهم، كافأ المغنية بقرية له نزل لها عنها، ولك أن تقول، إذا صدقنا هذا، فإن ابن المقفع يستفزه الطرب، حتى ليكاد يخرج عن قانون الحكمة، وللنفس وثَبات وللطبع نَزَوات.

كان ابن المقفع ينفر من الحسد نفرته من الحرص فيقول: «الحرص والحسد بكرا الذنوب، وأصل المهالك؛ أما الحسد فأهلك إبليس، وأما الحرص فأخرج آدم من الجنة». وقال: «لا يطمعن ذو الكبر في حسن الثناء، ولا الخَبُّ[1] في كثرة الصديق، ولا السيئ الأدب في الشرف، ولا الشحيح في المحمدة، ولا الحريص في الإخوان، ولا الملك المعجب بثبات الملك». وقال: «أهل العقل والكرم يبتغون إلى كل معروف وُصلة وسبيلًا».

قيل لابن المقفع: الصديق أحب إليك أم القريب؟ قال: القريب أيضًا يجب أن يكون صديقًا. وقيل له: بأي شيء يعرف الأخ؟ قال: أن ترى وجهه منبسطًا، ولسانه بمودته ناطقًا، وقلبه ببشره طافحًا، ولقربه من المجلس مجيبًا، وعلى مجاورته في الدار حريصًا، وله فيما بين ذلك مكرمًا. وقيل له: من أدّبك؟ قال:نفسي، إذا رأيت شيئًا أذمه من غيري اجتنبته.

---

(١) الخب بفتح الخاء: الخداع ويكسر.

وكان يقول: أخذت من كل شيء أحسن ما فيه حتى من الخنزير والكلب والهرة؛ أخذت من الخنزير حرصه على ما يصلحه، وبكوره في حوائجه، ومن الكلب نصحه لأهله. وحسن محافظته على أوامر صاحبه؛ ومن الهرة لطف نغمتها وحسن مسألتها، وانتهازها الفرصة في صيدها.

ورُوي أن عبد الحميد لقي ابن المقفع فقال له: بلغني عنك شيء أكرهه؛ فقال: لا أبالي، قال: ولِمَ؟ قال: لأنه إن كان باطلًا لم تقبله، وإن كان حقًّا عفوت عنه.

وعلى هذا فابن المقفع عملي في حياته، وعملياته أكثر جرمًا من نظرياته، يحاول الاستمتاع بماله فيبذله لمن يحتاج إليه، ويحرص على الصداقة، ويتجافى عن الحسد والرياء، ويتمتع بمباهج الحياة، ويرسل النفس على فطرتها بين إخوانه. قالوا: إن واليَة بن الحُبَاب، ومطيع بن إياس، ومنقذ بن عبد الرحمن الهلالي، وحفص بن أبي وردة، وابن المقفع، ويونس بن أبي فروة، وحماد عَجْرَد، وعلي بن الخليل، وحماد بن أبي ليلى الراوية، وابن الزِّبْرقان، وعمارة بن حمزة، ويزيد بن الفيض، وجميل بن محفوظ، وبشار المرعَّث، وأبان اللاحقي -كانوا ندماء يجتمعون على الشراب وقول الشعر، ولا يكادون يفترقون، ويهجو بعضهم بعضًا هزلًا وعمدًا، وكلهم متهم بدينه.

هذه رواية صاحب الأغاني عن الجاحظ في اتهام أهل ذاك المجمع بدينهم؛ ولعل ذلك كان من ابن المقفع قبل أن ينتحل الإسلام، ونحن نشك كثيرًا في روايات صاحب الأغاني، ذلك لأنه كان مستهترًا[1] ويجب أن يصف بالاستهتار كل عظيم، ولو كان ممن ثبتت عفته وطهارته.

---

(١) المستهتر بالشيء: بفتح التائين المولع به لا يبالي بما فعل فيه وشُتم له، أو الذي كثرت أباطيله.

ولقد قرأنا كلام ابن المقفع وتدبرناه، فما رأينا له كلمة واحدة تشعر بزندقته، وكيف تثبت الزندقة إذا لم تقم عليها بينات ظاهرة من أقوال وأفعال؟ ولو كان في دينه أدنى عهدة لكان المنصور العباسي قتله على الزندقة جهرة يوم أزمع قتله، ثم إنهم اتهموا ابن المقفع بأنه عارض القرآن وقالوا: إنه تاب وأناب، وهذه التهمة أيضًا كثيرًا ما وجهت إلى بعض العظماء بغية إسقاطهم في نظر الملوك والسوقة. وتخرص عليه المتخرصون أنه مر ببيت نار للمجوس بعد أن أسلم فقال متمثلًا:

يـا بيـت عاتكـة الـذي أتعـزَّل ... حـذر العـدى وبـك الفـؤاد موكـل
إني لأمنحـك الـصدود وإننـي ... قـسمًا إليـك مـع الـصدود لأميـل

وقالوا: إنه كثيرًا ما تمثل بهذين البيتين، ليخلصوا من ذلك إلى أن إسلامه كان صوريًّا، والدلائل كلها مكذبة لأقوالهم، فإن ابن المقفع لم يخالف الشرع بل خدمه وأحنى عليه. أليس هو القائل: «فأصل الأمر في الدين أن تعتقد الإيمان على الصواب، وتجتنب الكبائر، وتؤدي الفريضة، فالزم ذلك لزوم من لا غناء به عنه طرفة عين، ومن يعلم أنه من حُرِمَه هلك، ثم إن قدرت أن تجاوز ذلك إلى التفقه في الدين والعبادة فهو أفضل وأكمل»، وكيف يتهم بدينه من قال في حكمه الفاشية بين الناس: «أحق ما صان الرجل أمر دينه - المغبون من طلب الدنيا بعمل الآخرة - المصيبة العظمى الزرية في الدين - طوبى لمن ترك دنياه لآخرته».

وإذا جئت تعلل اجتماعه بهؤلاء الأدباء الذين ذُكروا، واتهمهم المتهمون بالإلحاد، سجلت خطأهم وضعف أحكامهم، وقد كان على الدهر أعظم سلوى للنفس اجتماع المتماثلين. وليس من المحظور في قانون الأرض وقانون السماء أن يَسْمَر الناس ويتنادروا ويتهازحوا، وهذه الطبقة من الرجال كانت من أرق الناس وأفضلهم؛ ذكر أبو عبد الله المرزبان بإسناد له عن بعض الرواة قال: أدركت طبقة بالكوفة يقال لهم: حلية الأرض ونقش الزمان، وهم حماد عجرد ووالبة بن الحباب

ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد وشراعة بن الزَّنْدَبُوذ، ومعظم هؤلاء كانوا عشراء ابن المقفع.

وللصداقة شروط ذكرها ابن المقفع بقوله: «انظر في حال من تريده لإخائك، فإن كان من إخوان الدين فليكن فقيهًا ليس بمراء ولا حريص، وإن كان من إخوان الدنيا فليكن حرًّا ليس بجاهل ولا كذاب، ولا شرير ولا مشنوع[1]، فإن الجاهل أَهل لأن يهرب منه أبواه، والكذاب لا يكون أخًا صادقًا، لأن الكذب الذي يجري على لسانه إنما هو من فضل كذب قلبه، وإنما سمي الصديق من الصدق، وقد يُتهم صدق القلب، وإن صدق اللسان، فكيف إذا ظهر الكذب على اللسان، وإن الشرير يكْسِبُك العدو، ولا حاجة لك في صداقة تجلب العداوة، وإن المشنوع شانع نفسه».

وما نظن أن من اتهموا ابن المقفع بدينه، إلا من الفقهاء المرائين، الذين اشترط هو أن لا يكون منهم الفقيه الذي يركن إليه المصاحب، وهذه الطبقة من الفقهاء كانت في كل عصر علة توقف العقل، ونشوب فتن سالت فيها الدماء أنهارًا على غابر الأيام، وقد تعوذ بالله من شرهم علماء الأمة، وأبانوا مساويهم ومصانعتهم للملوك، يحملون إليهم من سلعهم ما يروجونه عليهم بكل حيلة، ولا يرون الخير إلا فيما هم فيه بسبيل، ينكرون فضل الله على العالمين بتعدد الخصائص والاستعدادات.

ليس ابن المقفع أول من رُمي بالإلحاد؛ فتاريخ الفكر الإسلامي يذكر أخبار من وقع اتهامهم بهذه التهمة من نوابغ الأمة، على حين كانوا أعظم أنصار الدين

(١) المشنوع: المشهور بالشناعة، وهي القبح الذي يستشنع، يقال: شنعه شنعًا: إذا استقبحه وشتمه. ويقال: شنعنا فلان وفضحنا.

كالجاحظ، وفي القرون التالية اتهم بهذه التهمة عشرات من كبار العلماء[١]، وإن ما كتبوه ليشهد لهم أن أعداءهم ظلموهم في هذه التهم، وظهر بعد أن عذبوا في حياتهم، أنهم كانوا من المخلصين في خدمة الدين، وأن أولئك الثرثارين الذين طوتهم الأرض ولا أثر لهم في دنيا ولا دين، كانوا يحسدون أولئك المؤمنين، فانتقموا لأنفسهم بأن ضربوهم في أقدس الأشياء عندهم.

صحة الإيمان وحب الإسلام صفتان ماثلتان في ابن المقفع، مهما تقوَّل عليه المتقولون. وكان إلى هذا رجل نجدة وأنفة وكرم أخلاق ومروءة ووفاء وحسن عشرة. وكان ربَّ جد وعمل، لا يستند في أموره على الخيال؛ وجل اعتماده على عقله وتجاربه وتجارب من سلف من حكماء الأمم. كان محافظًا على شعائره، لا يحرم على نفسه الطيبات المحللة؛ فليس فيه جمود الفقهاء، ولا استهتار الأدباء، فَهِم من الدين ما فهمه منه كل عاقل.

وكان ابن المقفع من أرباب التفاؤل لا التشاؤم، لطيف الأخلاط، وادع النفس، ينظر إلى الأشياء من وجهها الحسن، ولا يفتأ يجملها بحسن ظنه، ويغالط نفسه في حقيقة السعادة، فينبعث إلى العمل مَرِحًا؛ يحب من الملوك عدلهم، وأن يعملوا في خشية الله وخشية الناس، ولا يهوّن عليهم صناعتهم ولا يصعبها، خصوصًا إذا اقترنت بقرناء الخير من الوزراء والعلماء. ومن كلامه: ثلاثة لا يستخف بهم: عامل السلطان والعالم والصديق؛ فإن من استخف بعامل السلطان ذهبت دنياه، ومن استخف بالعالم ذهبت أخراه، ومن استخف بالصديق ذهبت مروءته. وقال: خدمة السلطان بلا أدب خروج من السلامة إلى العطب، وقال: جانب المتظلم المسخوط

(١) راجع: مبحث الاضطهاد في سبيل الأفكار والمذاهب في كتاب «الإسلام والحضارة العربية» للمؤلف ج٢.

عليه، والظنين عند السلطان؛ ولا يجمعنك وإياه مجلس ولا منزل. ولا تظهرن له عذرًا، ولا تثنين عليه خيرًا، فإذا رأيته قد بلغ من الإعتاب مما سخط عليه فيه ما ترجو بأنه يلين له قلب الملك، ورأيت أن الملك قد استيقن بمباعدتك إياه وشدتك عليك. فاعمل إذًا في رضاه عنه برفق ولين.

وكان يعرف أدب الكبراء لأنه داخلهم ومازهم، وكان على حذر منهم، لا يغتر بإقبالهم عليه، وهم في حاجة إلى علمه وأدبه. استشاره عبد الله بن علي فيما كان بينه وبين المنصور، فأجابه: «لست أقود جيشا، ولا أتقلد حربًا، ولا أشير بسفك دم، وعثرة الحرب لا تُقال، وغيري أولى بالمشورة في هذا المكان».

بقي أن نشرح مصير ابن المقفع، ونصف ما أدى إلى مقتله: كان مقتله سياسيًّا، وما كان -ولله الحمد- في شيء من الغدر ولا الكفر، وفي السياسة يقتل البريء البر، ويثلم الفاضل الحر؛ ولم يسلم ابن المقفع من ظلم الملوك، على كثرة احتياطه معهم، وقتل لما قُدّر له القتل، على كثرة إحسانه، فباء قاتله بسبة الدهر، وكان قتل ابن المقفع أيضًا فخرًا له لا عارًا عليه.

لما خالف عبد الله بن عليّ على أبي جعفر المنصور، وادعى الخلافة لنفسه، أنفذ أبو جعفر أبا مسلم الخراساني لقتاله، فانهزم عبد الله وقصد أخويه سليمان وعيسى في البصرة، فدخلها مستترًا، وكاتب سليمان وعيسى أبا جعفر على إعطائه الأمان، فأنفذ أبو جعفر سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب، وأمره بضغطهم والتضييق عليهم، حتى يشخصوا بعبد الله بن علي إلى حضرته. وكان ابن المقفع يكتب لعيسى بن علي، فأمره عيسى بعمل نسخة الأمان، فعملها ووكدها، واحترس من كل تأويل يقع عليه فيها.

وترددت بين أبي جعفر وبينهم في النسخة كتبٌ، إلى أن استقرت على ما أرادوا من الاحتياط، ولم يتيسر لأبي جعفر إيقاع حيلة فيها، لفرط احتياط ابن المقفع، وكان الذي شق على أبي جعفر أن قال في النسخة: يوقع بخطه في أسفل الأمان «وإن أنا نلت من عبد الله بن علي أو أحد ممن أقدمه معه بصغير من المكروه أو كبير، أو أوصلت إلى أحد منهم ضررًا له سرًّا أو علانية، على الوجوه والأسباب كلها، تصريحًا أو كناية، أو بحيلة من الحيل؛ فأنا نَفْيٌ من محمد بن علي بن عبد الله ومولود لغير رشدة[1]. وقد حل لجميع أمة محمد خلعي وحربي والبراءة مني، ولا بيعة لي في رقاب المسلمين، ولا عهد ولا ذمة، وقد وجب عليهم الخروج من طاعتي، وإعانة من ناوأني من جميع الخلق، ولا موالاة بيني وبين أحد من المسلمين، وهو متبرئ من الحول والقوة، ومدع إن كان أنه كافر بجميع الأديان، ولقي ربه على غير دين ولا شريعة، محرم المأكل والمشرب والمناكح والمركب والرق والمِلك والملبس على الوجوه والأسباب كلها، وكتبت بخطي ولا نية لي سواه، ولا يقبل الله مني إلا إياه والوفاء به».

فأنكر أبو جعفر هذه الصيغة الشديدة في الأمان. وقال: من يكتب له هذا؟ فقيل: ابن المقفع كاتب عيسى بن علي. فقال أبو جعفر: فما أحد يكفينيه؛ وكان سفيان بن معاوية يضطغن على ابن المقفع أشياء، منها: أنه كان يعبث به فيما قيل؛ فتولى قتله. وقيل: إن سفيان لما أمر بقتله قال له: والله إنك لتقتلني، فتقتل بقتلي ألف نفس، ولو قتل مائة مثلك ما وفوا بواحد؛ ثم قال:

إذا مـا مـات مـثلي مـات شـخص ... يمـوت بموتـه خلـق كثـير
وأنـت تمـوت وحـدك لـيس يـدري ... بموتـك لا الـصغير ولا الكبـير

(١) ولد لرشدة (بفتح الراء ويكسر) ضد لزَنيَة.

هذه رواية الجهشياري في الأسباب التي دعت المنصور إلى قتل ابن المقفع، وفي كتاب المقالات[١] للنوبختي أن المنصور كتب لعبد الله بن علي على عمه، فيما رُوي، سبعين أمانًا كلها يردها عبد الله بن المقفع، ويقول له: هذا ينتقض عليك، ويبطل من مكان كذا وكذا. فلما ضجر المنصور، وطال عليه أمره، كتب إلى يزيد بن معاوية المهلبي، وهو عامله على البصرة، بعدما وقف على أمر ابن المقفع وأنه صاحبه، وكان متواريًا مخافة المنصور، وما بلغه عنه: يقسم بالله وبالأيمان المغلظة لئن لم يطلب عبد الله بن المقفع ولم يقتله ليقتلنّه ومن بقي من أهل بيته من آل المهلب، فطلبه يزيد بن معاوية فظفر به، وأراد حمله إلى المنصور فقتل نفسه. قال بعضهم: إنه شرب سمًّا، وقال بعضهم: إنه خنق نفسه. فلما قُتل ابن المقفع قَبِل عبد الله بن علي أوّل أمان ورد عليه، وظهر فحمل إلى المنصور فحبسه في بيت ثم هدمه عليه فقتله. وقال بعضهم: بل بعث إليه وهو نائم ثم وضع على وجهه شيئًا فأخذ بنفسه حتى مات. وقال بعضهم: إنه سمّه في طعامه فقتله. اهـ.

جوّز المنصور قتل بريء؛ كَتَب ما كَتَب حرصًا على مصلحة من يكتب له، والله يقول: {ولا يضار كاتب ولا شهيد} وما عدم الساسة حجة يتوكئون عليها، أو تأويلًا يأتيهم به المنافقون لقتل من استهدفوا لغضبهم، والمنصور على ما فيه من عقل ودهاء، عجز عن إقناع أهله بأن يكتبوا إلا ما أرادوا في أمان أحدهم، فانتقم من رجل لا قوة له غير قلمه، ومن رجل شريف ما تجوز في خيانة من يتولى الكتابة عنه،

---

(١) تفضل صديقي الأستاذ أبو عبد الله الزنجاني من علماء إيران فنقل لي هذه الجملة من كتاب المقالات للنوبختي، وهي غير مذكورة في كتاب المقالات والفرق المطبوع. وقد رجح الأستاذ أن الكتاب تأليف سعد بن عبد الله بن أبي خلف النميري الأشعري القُسمي المتوفى سنة ٢٩٩ أو ٣٠١ وهو من رؤساء الإمامية. والنسخة محفوظة في خزانة الأستاذ سلطاني البهبهاني من نبلاء طهران وأدبائها.

وأبت ذمته أن يكتب لهم عهد أمان ضعيف القيود، يدخل المنصور متى أراد من أحد شقوقه، فينقضه ويهلك من يحاول إهلاكه.

والمنصور يعرف مكانة ابن المقفع من العلم، يعرفه مما ترجمه له من كتب الحكماء، ويعرف شهرته المستفيضة في أرجاء مملكته الواسعة؛ وليس عبد الله بالرجل الذي يجهل موقعه، والمنصور يعرف أن ابن المقفع، والدولة في شبابها، زينة مملكته، وما كان يحسنه من فنون الحكمة والأدب لا يحسنه سواه، ولكن هو الاستبداد يعمي البصر، وحظوظ النفس تعمي البصيرة، والمستبد أبدًا محتقب أوزارًا، قد تعود عليه بأقبح سمعة وشنعة؛ ومن أجل هذا تحامى كثير من العقلاء التقرب من الملوك المستبدين، لأنهم إذا قالوا فعلوا.

شعبة من كلامه:

يحار من يحاول الاختيار من هذا القليل الذي عفت عنه القرون من كلام ابن المقفع. وبحسبنا أن نقتبس شيئًا من حكمه في الأدب الصغير واليتيمة، ثم نتبعه بجمل نختارها من كليلة ودمنة، ثم بطائفة من رسائله يجدر بطالب البلاغة أن يترواها ويتدبرها، وكان الأجدى أن لا نتكلف الاختيار من كلام كله در مختار.

١ - من ذلك قوله في معنى الانتفاع بالكلام النافع: «ومن أخذ كلامًا حسنًا عن غيره فتكلم به في موضعه على وجهه، فلا يَرَين عليه في ذلك ضُؤْلة[1]، فإن من أعين على حفظ قول المصيبين، وهُدي للاقتداء بالصالحين، ووفّق للأخذ عن الحكماء، فلا عليه ألا يزداد، فقد بلغ الغاية، وليس بناقصه في رأيه، ولا بغائضه من حقه أن لا يكونَ هو استحدث ذلك وسبق إليه، وإنما حياة العقل الذي يتم به، ويستحكم،

(١) الضؤلة: الضعف.

خصال ست: الإيثار بالمحبة، والمبالغة في الطلب، والتثبت في الاختيار، والاعتقاد للخير، وحسن الوعي، والتعهد لما اختير واعتقد، ووضع ذلك موضعه قولًا وعملًا».

٢- ومنها في شدة الحاجة إلى التأدب كشدة حاجة الجسم إلى التغذية: «ولسنا إلى ما يُمسك بأرماقنا من المطعم والمشرب بأحوج منا إلى ما يثبت عقولنا من الأدب الذي به تفاوت العقول. وليس غذاء الطعام بأسرع في نبات الجسد من غذاء الأدب في نبات العقل، ولسنا بالكد في طلب المتاع الذي يُلتمس به دفع الضر والعَيلة[١]، بأحق منا بالكد في طلب العلم الذي يُلتمس به صلاح الدين والدنيا».

٣- ومن ذلك حاجة المعلم إلى تعليم نفسه أولًا: «من نصب نفسه للناس إمامًا في الدين، فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه وتقويمها في السيرة والطعمة والرأي واللفظ والأخدان. فيكون تعليمه بسيرته أبلغ من تعليمه بلسانه، فإنه كما أن كلام الحكمة يؤنق[٢] الأسماع، فكذلك عمل الحكمة يروق العيون والقلوب. ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال والتفضيل من معلم الناس ومؤدبهم».

٤- ومن ذلك ذكر الواجب على من يتقرب من الملوك العادلين وحاجة المجتمع إلى الالتفاف عليهم: «إن للسلطان المقسط حقًّا لا يصلح لخاصة ولا عامة أمر إلا بإرادته، فذو اللب حقيق أن يُخلص لهم النصيحة ويبذل لهم الطاعة، ويكتمُ سرهم ويزين سيرتهم، ويذُبَّ بلسانه ويده عنهم، ويتوخى مرضاتهم، ويكون من أمره المواتاة لهم، والإيثار لأهوائهم ورأيهم على هواه، ويقدر الأمور على موافقتهم، وإن كان ذلك له مخالفًا، وأن يكون منه الجد في المخالفة لمن جانبهم وجهل حقهم،

---

(١) العيلة (بفتح العين): الفقر.

(٢) الأنق (محركة): الفرح والسرور، وأنق كفرح، والشيء أحبه، وبه أعجب.

ولا يواصل من الناس إلا من لا تُباعد مواصلته إياه منهم، ولا تحمله عداوة أحد له، ولا إضرار به على الاضطغان[1] عليهم، ولا مواتاة أحد على الاستخفاف بشيء من أمورهم، والانتقاص لشيء من حقهم، ولا يكتمهم شيئًا من نصيحتهم، ولا يتثاقل عن شيء من طاعتهم، ولا يبْطَر إذا أكرموه، ولا يجترئ عليهم إذا قربوه، ولا يطغى إذا سلطوه، ولا يُلحف إذا سألهم، ولا يُدخل عليهم المؤونة، ولا يستثقل ما حمَّلوه، ولا يغتر بهم إذا رضوا عنه، ولا يتغير لهم إذا سخطوا عليه، وأن يحمدهم على ما أصاب من خير منهم أو من غيرهم، فإنه لا يقدر أحد على أن يصيبه بخير إلا بدفاع الله عنه بهم».

أخذ هذا المعنى من سيرة الفرس في تقديس ملوكهم وفيه منزع سياسي لطيف، والعرب لا تعرف مثله، العرب يَجْبهون ملوكهم، ويضربون بعيوبهم وجوههم. ومما روي له في هذا المعنى: «لا تكن صحبتك للسلطان إلا بعد رياضة منك لنفسك، وكن حافظًا إذا ولَّاك، أمينًا إذا ائتمنك، راضيًا إذا أسخطك، ومع هذا فالحذر من صحبته كل الحذر». وقال: «لا تغرنك سعة تكون فيها، فإن أعظم الناس خطرًا من يدير ما في يده، والملوك إلى حسن التدبير أحوج من السوقة، فإن السوقة قد تعيش بغير مال، والملوك لا بد لهم من المال ولا قوام لهم إلا به» ، وقال: «ينبغي للملك أن لا يغضب لأن القدرة من وراء حاجته، ولا أن يكذب لأنه لا يقدر أحد على استكراهه على ما لا يريد، ولا أن يبخل لأن البخل مذموم، ولا أن يكون حقودًا لأن خطره يجلُّ عن المجازاة».

٥- ومنها في صورة العالم الحقيقي وما يجب عليه وينبغي له: «مما يدل على علم العالم معرفته بما يدرك من الأمور، وإمساكه عما لا يُدرك، وتزيينه نفسه بالمكارم،

(١) ضغن كفرح، وتضاغنوا واضطغنوا: انطووا على الأحقاد.

وظهور علمه للناس من غير أن يظهر منه فخر ولا عُجْب، ومعرفته بزمانه الذي هو فيه، وبصره بالناس، وأخذه بالقسط، وإرشاده المسترشد، وحسن مخالفته خلطاءه، وتسويته بين قلبه ولسانه، وتحريه العدل في كل أمر، ورحب ذرعه فيما نابه، واحتجاجه بالحجج فيما عمل، وحسن تبصره. من أراد أن يبصر شيئًا من علم الآخرة فبالعلم الذي به يعرف ذلك، ومن أراد أن يبصر شيئًا من علم الدنيا فبالأشياء التي هي تدل عليه».

٦- وفي تأصل الكذب في الإنسان قال: «رأس الذنوب الكذب، هو يؤسسها وهو يتفقدها ويثبتها، ويتلون ثلاثة ألوان: بالأمنية والجحود والجدل. يبدأ صاحبه بالأمنية الكاذبة فيما يزين له من السوآت فيشجعه عليها بأن ذلك سيخفى، فإذا ظهر عليه قابله بالجحود والمكابرة؛ فإن أعياه ذلك ختم بالجدل فخاصم عن الباطل، ووضع له الحجج والتمس به التثبت، وكابر الحق حتى يكون مسارعًا للضلالة، ومكابرًا بالفواحش».

٧- ومن محكم تصريحاته قوله: «لا يثبت دين المرء على حالة واحدة أبدًا، ولكنه لا يزال إما زائدًا وإما ناقصًا. السعيد يرغبه الله في الآخرة، حتى يقول لا شيء غيرها، فإذا هضم دنياه وزهد فيها لآخرته، لم يحرمه الله بذلك نصيبه من الدنيا، ولم ينقصه من سروره فيها، والشقي يرغبه الشيطان في الدنيا، حتى يقول لا شيء غيرها، فيعجل الله له التنغيص في الدنيا التي آثر مع الخزي الذي يلقى بعدها».

٨- وفي معرفة صلحاء الوقت والحث على الاستشارة قوله: «اعرف أهل الدين والمروءة في كل كورة وقرية وقبيلة، فيكونوا هم إخوانك وأعوانك وبطانتك وثقاتك، ولا يُقْذَفَنَّ في رُوعك أنك إذا استشرت الرجال ظهرت للناس منك الحاجة إلى رأي غيرك، فإنك لست تريد الرأي للذكر والسمعة، ولكنما تريده

للانتفاع به، ولو أنك مع ذلك أردت السمعة والذكر لكان أحسن الذكرين وأفضلهما عند أهل العقل أن يقال: لا يتفرد برأيه دون استشارة أهل الرأي». وقال: «اعلم أن المستشار ليس يكفيك، وأن الرأي ليس بمضمون، فإن أشار عليك صاحبك برأي لم تجد عاقبته كما تأمل فلا تجعلن ذلك ذنبًا، ولا تلزم المشير لومًا، فإنه عليه الاجتهاد فيما يشير به ويراه، وإن كنت أنت المشير فعمل برأيك فأصاب، فلا تمنن به ولا تكثر ذكره، وإن لم يعمل به فأخطأ، فلا تلمه على تركه».

٩- وفي التوقيت لكل شيء ووضع كل شيء موضعه قوله: «اعلم أن رأيك لا يتسع لكل شيء، ففرغه للمهم، وأن مالك لا يغني الناس كلهم، فاختص به ذوي الحقوق، وأن كرامتك لا تطيق العامة، فتوخَّ بها أهل الفضائل، وأن ليلك ونهارك لا يستوعبان حاجاتك، وإن دأبت فيهما، وأنه ليس لك إلى أدائها سبيل مع حاجة جسدك إلى نصيبه من الدعة، فأحسن قسمتها بين دعتك وعملك. واعلم أنك ما شغلت من رأيك بغير المهم أزري بالمهم، وما صرفت من مالك بالباطل فقدته حين تريده للحق، وما عدلت به من كرامتك إلى أهل النقص أضر بك في العجز عن أهل الفضل، وما شغلت من ليلك ونهارك في غير الحاجة أزرى بك في الحاجة».

١٠- ومنها في طبقات الملك: «اعلم أن المُلكَ ثلاثة: مُلك دين، ومُلك حزم، وملك هوى؛ أما ملك الدين فإنه إذا أُقيم لأهله دينهم، وكان دينهم هو الذي يُعطيهم ما لهم، ويُلحق بهم الذي عليهم أرضاهم، ونزل الساخط منهم منزلة الراضي في الإقرار والتسليم؛ وأما ملك الحزم فإنه يقوم به الأمر، ولا يسلم من الطعن والتسخط، ولن يضر طعن الذليل مع حزم القوي؛ وأما ملك الهوى فلعب ساعة ودمار دهر».

١١- وفي المبالغة بالحرص على الإخوان قوله: «اعلم أن إخوان الصدق هم خير مكاسب الدنيا: زينة في الرخاء، وعُدة في الشدة، ومعونة في المعاش والمعاد؛ فلا تُفَرِّطَنَّ في اكتسابهم وابتغاء الوصلات والأسباب إليهم». وقال له رجل: «أنا بالصديق آنس مني بالأخ». فقال: «صدقت، الصديق نسيب الروح، والأخ نسيب الجسم». وقال: «من سوء المجالسة أن الرجل تثقل عليه النعمة يراها بصاحبه، فيكون ممن يتشفى به منه تصغير أمره وتكدير النعمة عنده، بذكر الزوال والانتقال كأنه واعظ أو قاصّ، ولا يخفى ذلك على من يُعنى به، ولا ينزله منزلة الوعظ والإبلاغ، بل الحسد والاسترواح إلى غير راحته». وقال: «لا تلتمس غلبة صاحبك والظفر به عند كل كلمة، ولا تستطيلن عليه بظهور حجتك، فإن قومًا قد يحملهم حب الغلبة أن يتعقبوا الكلمة بعدما تنسى، يلتمسون بذلك الغلبة والاستطالة على الأصحاب، وذلك في العقل ضعف، وفي الأخلاق لؤم».

١٢- ومما قال في اجتناب حديث تتبرم به النفوس: «اعلم أنه تكاد تكون لكل رجل غالبة حديث، إما عن بلد من البلدان، أو ضرب من ضروب العلم، أو صنف من صنوف الناس، أو وجه من وجوه الرأي، وعندما يُغرَم به الرجل من ذلك يبدو منه السخف، ويعرف منه الهوى، فاجتنب ذلك في كل موطن، ثم عند أولي الأمر خاصة».

١٣- وقال في الابتعاد عن انتحال أقوال الأصدقاء: «إن سمعت من صاحبك كلامًا أو رأيًا يعجبك، فلا تنتحله تَزَيُّنًا به عند الناس، واكتفِ من التزين بأن تجتني الصواب إذا سمعته وتنسبه إلى صاحبه، واعلم أن انتحالك ذاك سَخطة لصاحبك، وأن فيه مع ذلك عارًا، فإن بلغ ذلك بك أن تُشير برأي الرجل، وتتكلم بكلامه وهو يسمع، جمعت مع الظلم قلة الحياء، وهذا من سوء الأدب الفاشي في الناس. ومن

تمام حسن الخلق والأدب أن تسخو نفسك لأخيك بما انتحل من كلامك ورأيك، وتَنْسُب إليه رأيه وكلامه، وتزينه مع ذلك ما استطعت». وقال: «إياك أن تبتدئ حديثًا ثم تقطعه كأنك رَوَّيت فيه، ولكن اجعل ترويتك فيه قبل ابتدائه والتفوه به، فإن احتجان الحديث بعد افتتاحه سخف وغم».

١٤- ومما قال: «لتعرف العلماء حين تجالسهم أنك على أن تسمع أحرص منك على أن تقول. إن آثرت أن تفاخر أحدًا ممن تستأنس إليه في لهو الحديث فاجعل غاية ذلك الجد، ولا تعدُوَنَّ أن تتكلم فيه بما كان هزلًا، فإذا بلغ الجدَّ أو قاربه فدعه، ولا تخلطن بالجد هزلًا وبالهزل جدًّا، فإنك إن خلطت بالجد هزلًا هجنته، وإن خلطت بالهزل جدًّا كدرته، غير أني علمت موطنًا واحدًا إن قدرت أن تستقبل به الجد بالهزل أصبت الرأي، وظهرت على الأقران، وذلك أن يتوردك[1] متورد بالسفه والغضب، فتجيبه إجابة الهازل برُحب من الذرع، وطلاقة من الوجه، وثبات من المنطق».

١٥- وقال وهو مما يجب على كل عاقل أن يجعله نُصب عينه، ويتأدب بأدبه: «تحرّز من سكر السلطة، وسكر العلم، وسكر المنزلة، وسكر الشباب، فإنه ليس من هذا شيء إلا وهو ريح جِنَّة[2] تسلب العقل، وتُذهب الوقار، وتصرف القلب والسمع والبصر واللسان عن المنافع».

١٦- وقال فيما ينبغي أن يكون عليه المرء من الأخلاق: «ذلل نفسك بالصبر على جار السوء، وعشير السوء، وجليس السوء، فإن ذلك ما لا يكاد يخطئك، فإن الصبر صبران: صبر الرجل على ما يكره، وصبره عما يحب؛ فالصبر على المكروه أكثرهما وأشبههما أن يكون صاحبه مضطرًّا؛ واعلم أن اللئام أصبر أجسادًا، والكرام

(١) توردك: طلب الورد.

(٢) الجِنَّة: الجنون.

أصبر نفوسًا، وليس الصبر الممدوح بأن يكون جلد الرجل وَقَاحًا[١]، أو رجله قوية على المشي، أو يده قوية على العلم، فإنما هذا من صفات الحمير، ولكن أن يكون للنفس غلوبًا، وللأمور محتملًا، وفي الضرّ متجملًا، ولنفسه عند الرأي والحفاظ مرتبطًا، وللحزم مؤثرًا، وللهوى تاركًا، وللمشقة التي يرجو عاقبتها مستخفًّا، وعلى مجاهدة الأهواء والشهوات مواظبًا، ولبصره بعزمه منفذًا».

ومما قال: «لا تعتذرن إلا إلى من يحب أن يجد لك عذرًا، ولا تستعينن إلا بمن يحب أن يظفرك بحاجتك، ولا تحدثن إلا من يرى حديثك مغنمًا، ما لم يغلبك الاضطرار». وقال: «إن كنت لا بد أن تكافئ بالعداوة، فإياك أن تكافئ عداوة السر بعداوة العلانية، وعداوة الخاصة بعداوة العامة». وقال: «لا تعجل بالثواب ولا بالعقاب، فإن ذلك أدوم لخوف الخائف ورجاء الراجي». وقال: «اعلم أن من الناس ناسًا يبلغ بهم الغضب إذا غضبوا أن يقطب أحدهم في غير وجه من أغضبه، ويسيء اللفظ والعقوبة لمن لا ذنب له، ويبلغ منه الرضا إذا رضي أن يتبرع بالأمر ذي الخطر لمن ليس بمنزلة ذلك عنده، ويعطي من لم يستحق العطاء، ويكرم من لا يستوجب الكرامة، فاحذر هذا الباب فإنه غير لائق بذوي الألباب».

١٧- وقال في النساء وفي رغبات الرجال الذواقين: «اعلم أن من أوقع الأمور في الدين، وأنهكها للجسد، وأتلفها للمال، وأضرها بالعقل، وأسرعها في ذهاب الجلالة والوقار الغرام بالنساء. ومن البلاء على المغرم بهن أنه لا ينفك يأْجِم[٢] ما عنده، وتطمح عيناه إلى ما ليس عنده منهن؛ وإنما النساء أشباه، وما يُرى في العيون والقلوب من فضل مجهولاتهن على معروفاتهن باطل وخُدعة، بل ما يرغب عنه

(١) صلبًا.

(٢) أجم الطعام وغيره يأجه: كرهه وملّه.

الراغب مما عنده أفضل ما تتوق إليه نفسه؛ وإنما المترغب عما في رحله منهن إلى ما في رحال الناس، كالمترغب عن طعام بيته إلى ما في بيوت الناس، بل النساء بالنساء أشبه من الطعام بالطعام، وما في رحال الناس من الأطعمة أشد تفاضلًا وتفاوتًا مما في رحالهم من النساء.

ومن العجب أن الرجل الذي لا بأس في لبّه، يرى المرأة من بعيد متلففة في ثيابها، فيصور لها في قلبه الحسن والجمال، حتى تعلق بها نفسه، من غير رؤية ولا خبر مخبر، ثم لعله يهجم منها على أقبح القبح وأدم الدمامة، فلا يعظه ذلك عن أمثالها، ولا يزال مشغوفًا بما لم يذق، حتى لو لم يبق في الأرض غير امرأة واحدة لظن أن لها شأنًا غير شأن ما ذاق، وهذا هو الحمق والشقاء. ومن لم يجم نفسه ويَظْلِفْها[1] ويَحْلأْها[2] عن الطعام والشراب والنساء في بعض ساعات شهوته وقدرته، كان أيسر ما يصيبه من وبال أمره انقطاعُ تلك اللذات عنه، بخمود نار شهوته، وضعف عوامل جسده؛ وقلَّ من تجد إلا مخادعًا لنفسه في أمر جسده عن الطعام والشراب والحمية والدواء، وفي أمر مروءته عند الأهواء والشهوات، وفي أمر دينه عند الريبة والشبهة والطمع».

والحكمة الأخيرة من أجَلّ ما يُتعلم ويتفهم.

١٨- وقال فيما يجب أن تعامل به المرأة في المجتمع: «إياك ومشاورة النساء فإن رأيهن إلى أَفْن[3]، وعزمهن إلى وَهْن، واكفف عليهن من أبصارهن بحجابك إياهن، فإن شدة الحجاب خير لك من الارتياب، وليس خروجهن بأشد من دخول من لا

(١) ظلف نفسه عنه: منعها من أن تفعله أو تأتيه أو كفها عنه. وأجم نفسه: أراحها.

(٢) يطردها ويمنعها.

(٣) الأفن: ضعف الرأي والعقل.

تثق به عليهن، فإن استطعت أن لا يعرفن غيرك فافعل، ولا تُمَلِّكَنَّ امرأة من الأمر ما جاوز نفسها، فإن ذلك أنعم لحالها، وأرخى لبالها، وأدوم لجمالها؛ وإنما المرأة ريحانة، وليست بقهرمانة[١]، فلا تعدُ بكرامتها نفسها، ولا تُعطها أن تشفع عندك لغيرها، ولا تطل الخلوة مع النساء فيمْلَلنَك وتملّهن، واستبق من نفسك بقية، فإن إمساكك عنهن وهن يُردنك باقتدار، خير من أن يهجمن عليك على انكسار. وإياك والتغاير في غير موضع غيرة، فإن ذلك يدعو الصحيحة منهن إلى السقم». وقوله: وإنما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة من أجمل الحكم والكلام المحقق.

١٩- وقال في العالم والمتعلم: «لا يعجبنك العالم ما لم يكن عالمًا بمواضع ما يعلم». وقال: «حبب إلى نفسك العلم حتى تألفه وتلزمه، ويكونَ هو لهوك ولذتك وسلوتك وبُلْغتك، واعلم أن العلم علمان: علم للمنافع، وعلم لتزكية العقل، وأفشى العلمين وأجداهما أن ينشط له صاحبه من غير أن يُحَرَّض عليه علم المنافع، وللعلم الذي هو ذكاء العقول وصقالها وجلاؤها. فضيلة منزلة عند أهل الفضل في الألباب».

٢٠- وقال في نظام العمل: «إذا تراكمت الأعمال عليك فلا تلتمس الرَّوح[٢] في مدافعتها بالرَّوغان منها، فإنه لا راحة لك إلا في إصدارها، وإن الصبر عليها هو يخففها، وإن الضجر منها هو يراكمها عليك، فتعهد من ذلك في نفسك خصلة قد رأيتها تعتري بعض أصحاب الأعمال، إن الرجل يكون في أمر من أمره فيرِدُ عليه شغل آخر، ويأتيه شاغل من الناس يكره تأخيره، فيكدر ذلك نفسه تكديرًا يفسد ما كان فيه وما ورد عليه، حتى لا يحكم واحدًا منهما، فإن ورد عليك مثل ذلك فليكن

---

(١) القهرمان (بفتح القاف) : الوكيلُ، فارسية معربة.

(٢) الرَّوح: الراحة. الروغان: الميل والحيد عن الشيء.

معك رأيك الذي تختار به الأمور، ثم اختر أولى الأمرين بشغلك فاشتغل به حتى تفرغ منه، ولا يَعْظُمن عليك فوت ما فات وتأخير ما تأخر، إذا أعملت الرأي مَعْمَله، وجعلت شغلك في حقه».

٢١- وقال في معنى التوقي من أكاذيب الناس ونقلها: «إياك والأخبار الرائعة وتحفظ منها، فإن الإنسان من شأنه الحرص على الإخبار لا سيما ما راع منها، فأكثر الناس من يحدث بما سمع ولا يبالي ممن سمع، وذلك مفسدة للصدق ومَرْزِئة[1] بالرأي، فإن استطعت ألا تخبر بشيء إلا وأنت به مصدق، وألا يكون تصديقك إلا ببرهان فافعل. ولا تقل كما يقول السفهاء أُخبر بما سمعت، فإن الكذب أكثر ما أنت سامع، وإن السفهاء أكثر من هو قائل، وإنك إن صِرْتَ للأحاديث واعيًا وحاملًا، كان ما تعي وتحمل عن العامة أكثر مما يخترع المخترع بأضعاف».

٢٢- وقال فيما يتأدب به السلطان: «إنك إن تلتمس رضا جميع الناس تلتمس ما لا يدرك، وكيف يتفق لك رضا المتخالفين، أم ما حاجتك إلى رضا من رضاه الجور، وإلى موافقة من موافقته الضلالة والجهالة؟ فعليك بالتماس رضا الأخيار وذوي العقول، فإنك متى تصب ذلك تضع عنك مؤونة ما سواه».

٢٣- «احرص أن تكون خبيرًا بأمور عمالك، فإن المسيء يَفْرَق من خبرتك قبل أن تصيبه عقوبتك، وإن المحسن يستبشر بعلمك فيه، قبل أن يأتيه معروفك. ليعرف الناس من أخلاقك أنك لا تعاجل بالثواب ولا بالعقاب، فان ذلك أدوم لخوف الخائف ورجاء الراجي».

---

(١) المرزئة كالرزء والرزيئة: المصيبة.

٢٤- وقال من نصائحه للملوك: «رأس الحزم للملك معرفته بأصحابه، وإنزالهم منازلهم، واتهام بعضهم على بعض، فإنه إن وجد بعضهم إلى إهلاك بعض سبيلًا، أو إلى تهجين بلاء المبلين، وإحسان المحسنين، والتغطية على إساءة المسيئين، سارعوا إلى ذلك، واستحالوا محاسن أمور الملك، وهجنوا مخارج رأيه، ولم يبرح منهم حاسد قد أفسد ناصحًا، وكاذب قد اتهم أمينًا، ومحتال قد أعطب بريئًا، وليس ينبغي للملك أن يفسد أهل الثقة بغير أمر يعرفه، بل ينبغي في فضل حلمه، وبسطة علمه، الحيطة على رأيه فيهم، والمحاماة على حرمتهم وذمامهم، وألا يسرع إلى إفسادهم، ولا يغتفر مع ذلك في زلة إن زلها أحد منهم؛ ولم يزل جهال الناس يحسدون علماءهم، وجبناؤهم شجعانهم، ولئامهم كرماءهم، وفجارهم أبرارهم، وشرارهم خيارهم».

٢٥- وقال: «السلطان لا يقرب الرجال على قرب آبائهم، ولا يباعدهم لبعدهم، ولكنه ينزلهم على قدر ما عند كل امرئ منهم فيما يُنتفع به، وقد يكون الجُرْدُ في البيت جارًّا مجاورًا، فيُنفي إذا كان ضارًّا مؤذيًا، ولما كانت في البازي منفعة وهو وحش، اقتنُي واتخذ».

وقال أيضًا فيما يتأدب به السلطان: «عوّد نفسك الصبر على ما خالفك من رأي ذوي النصيحة، والتجرع لمرارة قولهم وعذلهم، ولا تسهلن سبيل ذلك إلا لأهل الفضل والمروءة والعقل في ستر، لئلا ينتشر من ذلك ما يجترئ به سفيه، أو يستخف به شانئٌ».

٢٦- «إن كان سلطانك عند جِدّة دولة فرأيت أمرًا استقام بغير رأي، أو أعوانًا أجزوا بغير نَيْل، وعملًا أنجح بغير حزم، فلا يغرنك ذلك، ولا تستنيمن إليه، فإن الأمر الجديد مما يكون له مهابة في أنفس العوام، وحلاوة في قلوب قوم آخرين،

فيعين قوم على أنفسهم، ويعين قوم بها قبلهم، ويستتب ذلك الأمر غير طويل، ثم تصير الشئون إلى حقائقها وأصولها، فما كان شيءٌ من الأمر على غير أركان وثيقة، ولا دعائم محكمة، أوشك أن يتداعى ويتصدع».

٢٧- وقال: «إذا حاججت فلا تغضب، فإن الغضب يدفع عنك الحجة، ويظهر عليك الخصم، ومن ذلك تعلموا ثلاث خصال من خمس: التربية من الكراكي، والبخل وادخار القوت من الفأر والنمل، والبكور من الغراب والديك». ومن كلامه: «ثلاثة إن أقدموا على ثلاث من غير ثلاث، فرأوا ما كرهوا، فلا يلومُنَّ إلا أنفسهم: من خاصم من غير حجة فخصم[١]، أو صارع من غير قوة فصرع، أو حارب بغير عُدة فهزم».

٢٨- وقال: «أربعة المال إليهم أحب من أنفسهم: راكب البحر للتجارة، والمحارب بالأجرة، والناقب في خزانة الملك للسرقة، والحواء يستزيد الحية طمعًا في الهدية». وعنه أيضًا: «أربعة ضائعة: سراج في الشمس، ومطر في سبخة[٢]، وحسناء عند عِنِّين، وطعام عند سكران». وعنه أيضًا: «أربعة يعرفون في أربع أحوال: الشجاع في الحرب، والفرس في الميدان، والحراث في الحراثة، والصديق عند الحاجة إليه». وعنه أيضا: «العداوة الطبيعية أربع: عداوة الذئب للغنم، والبازي للقَبَج[٣]، والهر للفأر، والغراب للبوم».

٢٩- ومما نقل من كلمه وجمله: (إذا جعل الكلام مثلًا كان أوضح للمنطق، وآنق للمسمع، وأوسع لشعوب الحديث. لا تَعْرِضَنَّ عقلك على الناس، فإذا

---

(١) خصمه: غلبه.

(٢) السبخة (بحركة ومسكنة) : أرض ذات نز وملح.

(٣) القبج: الحجل.

اضطرك أمر فكن كصاحب الشطرنج يبني أمره على القائمة، فإن وجد ضربة غريبة انتهزها، وإياك أن تبتدئ في مجلس لم تسبر عقول أصحابه، فبين العقول بون بعيد. الإفراط في التواضع يوجب المذلة، والإفراط في المؤانسة يوجب المهانة. كثرة المُنَى تُخْلق العقل وتطرد القناعة وتفسد الحس. خمس نفر المال أحب إليهم من أنفسهم: المقاتل بالأجرة، وراكب البحر للتجارة، وحافر البئر والأسراب، والمدل بالسباحة، والمخاطر على السم. وقال: لينفق ذو المال ماله في ثلاثة مواضع: في الصَّدقة إن أراد الآخرة، وفي مصانعة السلطان إن أراد الذكر، وفي النساء إن أراد العيش. وقال: إن صاحب الدنيا يطلب ثلاثة ولا يدركها إلا بأربعة: فأما الثلاثة التي يطلب: فالسعة في المعيشة، والمنزلة في الناس، والزاد في الآخرة؛ وأما الأربعة التي تدرك بها هذه الثلاثة: فاكتساب المال من أحسن وجوهه، وحسن القيام عليه، ثم التثمير له، ثم إنفاقه فيما يصلح المعيشة ويرضي الأهل والإخوان، ويعود في الآخرة نفعه؛ فإن أضاع شيئًا من هذه الأربعة لم يدرك شيئًا من هذه الثلاثة: إن لم يكتسب لم يكن له مال يعيش به، وإن كان ذا مال واكتساب ولم يحسن القيام عليه، يوشك أن يفنى ويبقى بلا مال، وإن هو وضعه ولم يثمره لم يمنعه قلة الإنفاق من سرعة النفاد، كالكحل الذي إنما يؤخذ منه على الميل مثل الغبار، ثم هو مع ذلك سريع فناؤه، وإن اكتسب وأصلح وثَمَّر، ولم ينفق الأموال في أبوابها، كان بمنزلة الفقير الذي لا مال له، ثم لا يمنع ذلك ماله من أن يفارقه، ويذهب حيث لا منفعة فيه، كحابس الماء في الموضع الذي تنضب فيه المياه، إن لم يخرج منه بقدر ما يدخل فيه تمصل[1] وسال من نواحيه فيذهب المال ضياعًا».

(١) مصل: قطر.

هذه بعض حكم ابن المقفع لقطناها، وكلامه ليس مما يلتقط ويطرح منه، بل كله سلسلة واحدة ونمط واحد؛ وقد ختم كتابه اليتمية بهذه الجملة المعجبة والوصف الغريب، قال، وهي آية الإبداع.

٣٠- «إني مخبرك عن صاحب كان أعظم الناس في عيني، وكان رأس ما أعظمه عندي صِغَر الدنيا في عينه؛ كان خارجًا من سلطان بطنه فلا يشتهي ما لا يجد، ولا يُكثر إذا وجد، وكان خارجًا من سلطان فرجه فلا تدعوه إليه مؤونة، ولا يستخف له رأيًا ولا بدنًا، وكان خارجًا من سلطان الجهالة فلا يُقدم إلا على ثقة أو منفعة، وكان أكثر دهره صامتًا، فإذا قال بذَّ القائلين، وكان يُرى مُتضعفًا[1] مستضعفًا، فإذا جَدَّ فهو الليث عاديًا؛ وكان لا يدخل في دعوى، ولا يَشْرك في مراء، ولا يدلي بحجة، حتى يجد قاضيًا فَهِمًا وشهودًا عدولًا، وكان لا يلوم أحدًا على ما قد يكون العذر في مثله، حتى يعلم ما اعتذاره؛ وكان لا يشكو وجعًا إلا إلى من يرجو عنده البر، ولا يصحب إلا من يرجو عنده النصيحة، وكان لا يتبرم ولا يتسخط ولا يتشهى ولا يتشكى، ولا ينتقم من العدو ولا ينفعل عن الولي، ولا يخص نفسه دون إخوانه بشيء من اهتمامه وحيلته وقوته، فعليك بهذه الأخلاق إن أطقت، ولن تطيق، ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع، وبالله التوفيق».

٣١- من كليلة ودمنة: قال بيدبا: إن وجدت الأمور التي اختص بها الإنسان من بين سائر الحيوان أربعة أشياء، وهي جِماع ما في العالم، وهي الحكمة والعفة والعقل والعدل، والعلم والأدب والروية داخلة في باب الحكمة، والحلم والصبر والوقار داخلة في باب العقل، والحياء والكرم والصيانة والأنفة داخلة في باب العفة، والصدق والإحسان والمراقبة وحسن الخلق داخلة في باب العدل؛ وهذه هي

(١) ضعفه تضعيفًا: عده ضعيفًا كاستضعفه وتضعفه، وفي الحديث: «كل ضعيف متضعف».

المحاسن، وأضْدادها هي المساوئ، فمتى كملت هذه في واحد لم يُخرجه النقص في نعمته إلى سوء الحظ من دنياه، ولا إلى نقص في عقباه، ولم يتأسف على ما لم يُعِن التوفيق ببقائه، ولم يُحزنه ما تجري به المقادير في ملكه، ولم يُدْهَش عند مكروه، فالحكمة كنز لا يفنى على الإنفاق، وذخيرة لا يُضَربُ لها بالإملاق[1]، وحُلة لا تَخلق جِدَّتها، ولذة لا تصرَم مدتها.

٣٢- «واعلم أيها الملك أنه من لم يقبل من نصائحه ما يثقل عليه مما ينصحون له لم يحمد رأيه، كالمريض الذي يدع ما يبعث له الطبيب، ويَعمِد إلى ما يشتهيه، وحَقَّ على مؤازر السلطان أن يبالغ في التحضيض له على ما يزيد سلطانه قوة ويزينه، والكفِّ عما يضيره ويشينه، وخير الإخوان والأعوان أقلهم مداهنة في النصيحة، وخير الأعمال أحمدها عاقبة، وخير النساء الموافقة لبعلها، وخير الثناء ما كان على لسان الأخيار، وخير السلطان ما لم يخالطه بطر، وخير الأخلاق أعونها على الورع، وقد قيل: لو أن امرأ توسد النار، وافترش الحيات كان أحق ألا يَهْنِئه النوم، والرجل إذا أحس من صاحبه بعداوة يريده بها لا يطمئن إليه، وأعجز الملوك آخذهم بالهوينى، وأقلهم نظرًا في مستقبل الأمور، وأشبههم بالفيل الهائج المغتلم[2] الذي لا يلتفت إلى شيء، فإن حزبه[3] أمر تهاون به، وإن أضاع الأمور حمل ذلك على قرنائه». وقال: «إن كان للملوك فضل في مملكتها، فإن للحكماء فضلًا في حكمتها أعظم؛ لأن الحكماء أغنياء عن الملوك بالعلم، وليس الملوك بأغنياء عن الحكماء بالمال».

٣٣- وقال: «ومن ذا الذي غالب القدر، ومن ذا الذي بلغ من الدنيا جسيمًا من الأمور فلم يبطر، ومن ذا الذي طلب من اللئام فلم يحرم، ومن ذا الذي خالط

---

(١) الإملاق: الفقر، وضرب له: بحث عنه، تقول: ضربت له الأرض كلها فلم أجده.

(٢) المغتلم: الذي غلبته الشهوة.

(٣) حزبه الأمر: نابه واشتد عليه.

الأشرار فسلم، ومن ذا الذي صحب السلطان فدام له منه الأمن والإحسان؟ ولقد صدق الذي قال: مثل السلاطين في قلة وفائهم لمن صحبهم، وسخاء أنفسهم بمن فقدوا من قرنائهم، كمثل البَغِيّ كلما فقدت واحدًا جاء آخر».

٣٤- وقال: «فقد علمتم نتيجة رأيي وصحة فكري، وإني لم آته جهلًا به، لأني كنت أسمع من الحكماء قبلي تقول: إن الملوك لها سكرة كسكرة الشراب، فالملوك لا تفيق من السكرة إلا بمواعظ العلماء وآداب الحكماء. والواجب على الملوك أن يتعظوا بمواعظ العلماء، والواجب على العلماء تقويم الملوك بألسنتها، وتأديبها بحكمتها، وإظهار الحجة البينة اللازمة لهم، ليرتدعوا عما هم عليه من الاعوجاج، والخروج عن العدل؛ فوجدت ما قالت العلماء فرضًا واجبًا على الحكماء للملوكهم، ليوقظوهم من سِنة سكرتهم، كالطبيب الذي يجب عليه في صناعته حفظ الأجساد على صحتها، أوردّها إلى الصحة، فكرهت أن يموت أو أن أموت، وما يبقى على الأرض إلا من يقول: إنه كان بيدبا الفيلسوف في زمان دبشليم الطاغي فلم يرده عما كان عليه. فإن قال قائل: إنه لم يمكنه كلامه خوفًا على نفسه، قالوا: كان الهرب منه ومن جواره أولى به، والانزعاج عن الوطن شديد، فرأيت أن أجود بحياتي فأكون قد أتيت فيما بيني وبين الحكماء بعدي عُذرًا، فحملتها على التغرير أو الظفر بما أريده؛ وكان من ذلك ما أنتم معاينوه؛ فإنه يقال في بعض الأمثال: إنه لم يبلغ أحد مرتبة إلا بإحدى ثلاث: إما بمشقة تناله في نفسه، وإما بوضيعة في ماله، أو وَكْس[1] في دينه؛ ومن لم يرتكب الأهوال لم ينل الرغائب».

١٠٥- وقد يقال: الزم ذا العقل وذا الكرم، واسترسل إليهما، وإياك مفارقتهما، وأصحب الصاحب إذا كان عاقلًا كريمًا، أو عاقلًا غير كريم، أو كريمًا غير عاقل،

(١) الوضيعة: الخسارة، والوكس: النقصان.

فالعاقل الكريم كامل، والعاقل غير الكريم اصحبه، وإن كان غير محمود الخليقة؛ واحذر من سوء أخلاقه، وانتفع بعقله، والكريم غير العاقل الزمه ولا تدع مواصلته، وإن كنت لا تحسد عقله، وانتفع بكرمه وانفعه بعقلك، والفرار كل الفرار من اللئيم الأحمق.

٣٦- فقلت في نفسي: ما الإخوان ولا الأعوان ولا الأصدقاء إلا بالمال، ووجدت من لا مال له إذا أراد أمرًا قعد به العُدْم[١] عما يريده، كالماء الذي يبقى في الأودية من مطر الشتاء، لا يمر إلى نهر، ولا يجري إلى مكان، فتشربه أرضه. ووجدت من لا إخوان له لا أهل له، ومن لا ولد له لا ذكر له، ومن لا مال له لا عقل له ولا دنيا ولا آخرة؛ لأن الرجل إذا افتقر قطعه أقاربه وإخوانه؛ فإن الشجرة النابتة في السباخ، المأكولة من كل جانب، كحال الفقير المحتاج إلى ما في أيدي الناس؛ ووجدت الفقر رأس كل بلاء، وجالبًا إلى صاحبه كل مقت، ومعدن النميمة؛ ووجدت الرجل إذا افتقر اتهمه من كان له مؤتمنًا، وأساء به الظن من كان يظن به حسنًا، فإن أذنب غيره كان هو للتهمة موضعًا، وليس من خَلة[٢] هي للغنى مدح إلا وهي للفقير ذم، فإن كان شجاعًا قيل: أهوج، وإن كان جوادًا سُمي مبذرًا، وإن كان حليمًا سمي ضعيفًا، وإن كان وقورًا سمي بليدًا؛ فالموت أهون من الحاجة التي تحوج صاحبها إلى المسألة، ولا سيما مسألة الأشحاء واللئام، فإن الكريم لو كلف أن يدخل يده في فم الأفعى فيخرجَ منه سمًّا فيبتلعه، كان ذلك أهون عليه وأحب إليه من مسألة البخيل اللئيم.

---

(١) العدم: الفقر.

(٢) الخلة (بفتح الخاء) : الخصلة، وجمعها: خلال.

٣٧- ثم تذكرت فوجدت البلاء في الدنيا إنما يسوقه الحرص والشَرَه، ولا يزال صاحب الدنيا في بلية وتعب ونصب، ووجدت تجشم الأسفار البعيدة في طلب الدنيا أهون عليَّ من بسط اليد إلى السخي بالمال، ولم أرَ كالرضا شيئًا، ووجدت العلماء قد قالوا: لا عقل كالتدبير، ولا ورع ككف الأذى، ولا حسب كحسن الخلق، ولا غنى كالرضا، وأحق ما صبّر الإنسان على الشيء نفسه، وأفضل البر الرحمة، ورأس المودة الاسترسال[1]، ورأس العقل معرفة ما يكون مما لا يكون. وقالوا: الخَرَس خير من اللسان الكذوب، والضر والفقر خير من النعمة والسعة من أموال الناس.

٣٨- واعلم أن حسن الكلام لا يتم إلا بحسن العمل، وأن المريض الذي قد علم دواء مرضه إن لم يتداوَ به لم يُغن علمه به شيئًا، ولم يجد لدائه راحة ولا خفة؛ فاستعمل رأيك، ولا تحزن لقلة المال، فإن الرجل ذا المروءة، قد يكرم على غير مال، كالأسد الذي يُهاب وإن كان رابضًا، والغني الذي لا مروءة له يُهان وإن كان كثير المال، كالكلب لا يُحفل به وإن طُوِّق وخُلخل[2] بالذهب؛ فلا تَكْبُرَنّ عليك غربتك، فإن العاقل لا غربة له، كالأسد الذي لا ينقلب إلا معه قوته؛ فلتحسن تعهدك لنفسك، فإنك إذا فعلت ذلك جاء الخير يطلبك، كما يطلب الماء انحداره. وإنما جعل الفضل للحازم البصير، وأما الكسلان المتردد فإن الفضل لا يصحبه، كما أن المرأة الشابة لا تطيب لها صحبة الشيخ الهرم؛ وقد قيل في أشياء ليس لها ثبات ولا بقاء: ظل الغمامة في الصيف، وخِلّة الأشرار، والبناء على غير أساس، والنبأ الكاذب، والمال الكثير؛ فالعاقل لا يحزن لقلته، ولكن ماله وعقله وما قدم من صالح عمله،

(١) استرسل إليه: انبسط واستأنس.

(٢) جعل له طوق وخلخال.

فهو واثق بأنه لا يسلب ما عمل، ولا يؤاخذ بشيء لم يعمله، وهو خليق أن لا يغفل عن أمر آخرته، فإن الموت لا يأتي إلا بغتة ليس له وقت معين.

٣٩- قلما ظفر أحد بغنيٍّ ولم يطغَ، وقلما حرص الرجل على النساء ولم يفتضح، وقلَّ من وثق بوزراء السوء وسلم من أن يقع في المهالك.

٤٠- ومنه: وقد قيل: إن خصالًا ثلاثًا لن يستطيعها أحد إلا بمعونة من علو همة وعظيم خطر، منها: صحبة السلطان، وتجارة البحر، ومناجزة العدو؛ وقد قالت العلماء في الرجل الفاضل الرشيد: إنه لا ينبغي أن يُرى إلا في مكانين، ولا يليق به غيرهما: إما مع الملوك مكرَّمًا أو مع النساك متعبدًا، كالفيل إنما جماله وبهاؤه في مكانين: إما أن تراه وحشيًّا أو مركبًا للملوك.

٤١- ووجدت صرعة اللين والرفق أسرع وأشد استئصالًا للعدو من صرعة المكابرة، فإن النار لا تزيد بحدتها وحرها إذا أصابت الشجرة على أن تحرق ما فوق الأرض منها، والماء بلينه وبرده يستأصل ما تحت الأرض منها؛ ويقال: أربعة أشياء لا يستقل قليلها: النار والمرض والعدو والدَّيْن. قال الغراب: وكلُّ ذلك كان من رأي الملك وأدبه وسعادة جَدّه، وأنه كان يقال: إذا طلب اثنان أمرًا ظفر به منهما أفضلهما مروءة، فإن اعتدلا في المروءة فأشدهما عزمًا، فإن استويا في العزم فأسعدهما جَدًّا؛ وكان يقال: من حارب الملك الحازم الأريب المتضرع[1] الذي لا تبطره السراء ولا تدهشه الضراء، كان هو داعي الحتف إلى نفسه، ولا سيما إذا كان ذلك أيها الملك العالم بفروض الأعمال، ومواضع الشدة واللين، والغضب والرضا، والمعاجلة والأناة، الناظر في أمر يومه وغده، وعواقب أعماله. قال الملك للغراب: بل برأيك

(١) التضريع: التقرب في روغان كالتضرع.

وعقلك ونصيحتك ويُمن طالعك كان ذلك، فإن رأى الرجل الواحد العاقل الحازم أبلغ في هلاك العدو من الجنود الكثيرة من ذوي البأس والنجدة والعدو والعُدة.

٤٢- ينبغي للعاقل أن لا يغفل عن التماس ما في نفس أهله وولده وإخوانه وصديقه، عند كل أمر وفي كل لحظة وكلمة، وعند القيام والقعود وعلى كل حال، فإن ذلك كله يشهد على ما في القلوب. وقد قالت العلماء: إذا دخل قلب الصديق من صديقه ريبة فليأخذ بالحزم في التحفظ منه، وليتفقد ذلك في لحظاته وحالاته، فإن كان ما يظن حقًّا ظفر بالسلامة، وإن كان باطلًا ظفر بالحزم ولم يضرّه ذلك.

٤٣- ومنه: وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنك إذا غدرت بصاحبك فأنت لا شك بمن سواه أغدر، وأنه إذا صاحب أحد صاحبًا وغدر بمن سواه، فقد علم صاحبه أنه ليس عنده للمودة موضع، فلا شيء أضيعُ من مودة تُمنَح من لا وفاء له، وحِباءٍ يُصطنع عند من لا شكر له، وأدب يُحمل إلى من لا يتأدب به ولا يسمعه، وسرّ يُستودع عند من لا يحفظه، فإن صحبة الأخيار تروث الخير، وصحبة الأشرار تورث الشر، كالريح إذا مرت بالطِّيب حملت طيبًا، وإذا مرت بالنتن حملت نَتَنًا.

٤٤- قال الملك: لا خير فيمن لا يستطيع الإعراض عما في نفسه حتى ينساه ويهمله، فلا يذكر منه شيئًا، ولا يكون له في نفسه موقع. قال فَنْزَةُ: إن الرجل الذي في باطن قدمه قرحة إن هو حرص على المشي، فلا بد أن تُنْكأ قرحته، والرجل الأرمد العين إذا استقبل بها الريح تعرَّض لأن تزداد رمدًا، وكذلك الواتر إذا دنا من الموتور[1] فقد عرض نفسه للهلاك. ولا ينبغي لصاحب الدنيا إلا توقي المهالك والمتالف، وتقدير الأمور، وقلة الاتكال على الحول والقوة، وقلة الاغترار بمن لا يؤمن، فإنه من اتكل على قوته فحمله ذلك على أن يسلك الطريق المخوف فقد سعى

(١) الموتور: من قُتل له قتيل فلم يدرك بدمه.

في حتف نفسه، ومن لا يُقَدّر لطاقته طعامه وشرابه وحَمّل نفسه ما لا تطيق ولا تحمل فقد قتل نفسه، ومن لم يُقَدّر لقمته وعظمها فوق ما يسع فُوه فربما غصَّ بها فمات. ومن اغتر بكلام عدوه وانخدع له وضيع الحزم فهو أعدى لنفسه من عدوه، ولكن عليه العمل بالحزم والأخذ بالقوة، ومحاسبة نفسه في ذلك، والعاقل لا يثق بأحد ما استطاع، ولا يُقيم على خوف وهو يجد عنه مَذْهبًا؛ وأنا كثير المذاهب، وأرجو أن لا أذهب وجهًا إلا أصبتُ فيه ما يُغنيني، فإن خِلالًا خمسًا من تزوّدهن كفينه في كل وجه، وآنسنه في كل غربة، وقرَّبن له البعيد، وأكسبنه المعاش والإخوان: أولاهن كف الأذى، والثانية حسن الأدب، والثالثة مجانبة الرِّيب، والرابعة كرم الخُلق، والخامسة النُّبل في العمل. وإذا خاف الإنسان على نفسه شيئًا طابت نفسه عن المال والأهل والولد والوطن، فإنه يرجو الخَلف من ذلك كله، ولا يرجو عن النفس خَلفًا؛ وشرُّ المال ما لا إنفاق منه، وشرُّ الأزواج التي لا تُؤاتي بعلها، وشر الولد العاصي العاقُّ والديه، وشر الإخوان الخاذل لأخيه عند النكبات والشدائد، وشر الملوك الذي يخافه البريء ولا يواظب على حفظ أهل مملكته، وشر البلاد بلادٌ لا خصبَ فيها ولا أمن.

٤٥- قال الفيلسوف: أيها الملك إن طبائع الخلق مختلفة، وليس مما خلقه الله في الدنيا مما يمشي على أربع أو على رجلين أو يطيرُ بجناحين شيء هو أفضل من الإنسان. ولكن من الناس البرُّ والفاجر، وقد يكون في بعض البهائم والسباع والطير ما هو أوفى منه ذمة، وأشد محاماة على حَرَمه، وأشكر للمعروف وأقوم به، وحينئذ يجب على ذوي العقول من الملوك وغيرهم أن يضعوا معروفهم مواضعه، ولا يضيّعوه عند من لا يحتمله ولا يقوم بشكره، ولا يصطنعون أحدًا إلا بعد الخبرة بطرائقه، والمعرفة بوفائه ومودته وشكره، ولا ينبغي أن يختصموا بذلك قريبًا لقرابته، إذا كان غير محتمل للصنيعة، ولا أن يمنعوا معروفهم ورِفدهم للبعيد، إذا كان يقيهم

بنفسه وما يقدر عليه، لأنه يكون حينئذ عارفًا بحق ما اصطُنع إليه، مؤديًا لشكر ما أنعم عليه، محمودًا بالنصح، معروفًا بالخير، صدوقًا عارفًا، مؤثرًا لحميد الفعال والقول، وكذلك كل من عرف بالخصال المحمودة ووثق منه بها كان للمعروف موضعًا، ولتقريبه واصطناعه أهلًا، فإن الطبيب الرفيق العاقل لا يقدر على مداواة المريض إلا بعد النظر إليه، والجَسِّ لعروقه، ومعرفة طبيعته، وسبب علته، فإذا عرف ذلك كله حق معرفته أقدم على مداواته، فكذلك العاقل لا ينبغي له أن يصطفي أحدًا ولا يستخلصه إلا بعد الخبرة، فإن من أقدم على مشهور العدالة من غير اختبار، كان مخاطرًا في ذلك ومشرفًا منه على هلاك وفساد. ومع ذلك ربما صنع الإنسان المعروف مع الضعيف الذي لم يجرب شكره، ولم يعرف حاله في طبائعه، فيقوم بشكر ذلك ويكافئ عليه أحسن المكافأة. وربما تحذر العاقل من الناس ولم يأمن على نفسه أحدًا منهم. وقد يأخذ ابن عرس فيدخله في كمه، ويخرجه من الآخر، كالذي يحمل الطائر على يده، فإذا صاد شيئًا انتفع به وأطعمه منه. وقد قيل: لا ينبغي لذي العقل أن يحتقر صغيرًا ولا كبيرًا من الناس، ولا من البهائم، ولكنه جدير بأن يبلوهم ويكونَ ما يصنع إليهم على قدر ما يرى منهم.

٤٦- لا يخفى فضل ذي العلم وإن أخفاه، كالمسك يخبى ويستر، ثم لا يمنع ذلك رائحته أن تفوح. الرجل ذو المروءة يكرم على غير مال كالأسد يهاب وإن كان رابضًا، والرجل الذي لا مروءة له يهان وإن كان غنيًّا، كالكلب يهون على الناس وإن عسّ[1] وطوّف. المودة بين الصالحين سريع اتصالها بطيء انقطاعها، كآنية الذهب التي هي بطيئة الانكسار، هينة الإعادة، والمودة بين الأشرار سريع انقطاعها بطيء اتصالها، كآنية الفخار يكسرها أدنى شيء ولا وصل لها. لا يرد بأس العدو القوي بمثل التذلل له، كما أن العشب إنما يسلم من الريح العاصف بلينه لها وانثنائه معها.

(١) عس: طاف بالليل.

لا يجب للمذنب أن يفحص عن أمره لقبح ما ينكشف عنه كالشيء المنتن كلما أثير ازداد نتنًا. من صنع معروفًا لعاجل الجزاء فهو كملقي الحب للطير لا لينفعها بل ليصيدها به. المال إذا كان له مدد يجتمع منه ولم يصرف في الحقوق أسرع إليه الهلاك من كل وجه، كالماء إذا اجتمع في موضع ولم يكن له طريق إلى النفوذ تفجر من جوانبه فضاع. الأدب يُذهب عن العاقل السكر، ويزيد الأحمق سكرًا، كالنهار يزيد البصير بصرًا، ويزيد الخفاش سوء بصر. الدنيا كدودة القز لا تزداد بالإبريسيم على نفسها لفًّا، إلا ازدادت من الخروج بعدًا. إذا عثر الكريم لم ينتعش إلا بكريم، كالفيل إذا توَحَّل لم يقلعه إلا الفيلة. يبقى الصالح من الرجال صالحًا حتى يصاحب فاسدًا، فإذا صاحبه فسد، مثل مياه الأنهار تكون عذبة حتى تخالط ماء البحر، فإذا خالطته ملحت.

قصدنا بالتوسع في النقل من حكم ابن المقفع لتكون من المستفيد على طرف الثمام[1]، ويعاور تلاوتها كلما اتسع له وقته، ويتدبر ما فيها من المعاني والأفكار، ليتخذ منها عونًا على تفهم الحياة والمجتمع، ويجعل هذا الكلام المنظم درسًا يمعن في تبحره وتدبره، كما قال هو في غرض كتابه كليلة ودمنة: «وينبغي لمن قرأ ذا الكتاب أن يعرف الوجوه التي وضعت له، وإلى أي غاية جرى مؤلفه فيه عندما نسبه إلى البهائم، وأضافه إلى غير مُفْصِح، وغير ذلك من الأوضاع التي جعلها أمثالًا، فإن قارئه متى لم يفعل ذلك لم يدر ما أريد بتلك المعاني، ولا أي ثمرة يُجتنى منها، ولا أي نتيجة تحصل له من مقدمات ما تضمنه هذا الكتاب».

(١) الثمام: نبت، ويقال لما لا يعسر تناوله على طرف الثمام لأنه لا يطول.

قصدنا أن يجعل طالب البلاغة من كلام ابن المقفع مثالًا صالحًا يحتذيه في الإفصاح عن ذات نفسه، وأن يتدبره كيف ينتقي ألفاظه ليصوغ بها تراكيبه ويأتي بهذه المعاني، وهي وإن لم تكن جديدة بما فيها فجديدة بوضعها وصنعها.

بقي علينا أن نختار قطعًا قليلة من رسائله مطولاتها ومختصراتها؛ ومن المطولات نأخذ من رسالته في الصحابة، صحابة الخليفة وأقرانه؛ ومن المختصرات نقتبس رسائل مفردة.

فمما قال في الأولى في إصلاح جند الدولة وهو أول ما يسترعى نظر صاحبها: «فمن الأمور التي يذكر بها أمير المؤمنين، أمتع الله به، أمر هذا الجند، من أهل خراسان، فإنهم جند لم يدرك مثلهم في الإسلام، وفيهم منعة بها يتم فضلهم إن شاء الله. أما هم فأهل بصر بالطاعة، وفضل عند الناس، وعفاف نفوس وفروج، وكف عن الفساد، وذل للولاة، فهذه حال لا نعلمها توجد عند أحد غيرهم. وأما ما يحتاجون فيه إلى المنعة من ذلك تقويم أيديه ورأيهم وكلامهم، فإن في ذلك اليوم اختلاطًا من رأس مفرط غالٍ، وتابع متحير شاك؛ ومن كان إنما يصول على الناس بقوم لا يعرف منهم الموافقة في الرأي والقول والسيرة، فهو كراكب الأسد الذي يوجل من رآه، والراكب أشد وجلًا. فلو أن أمير المؤمنين كتب لهم أمانًا معروفًا بليغًا وجيزًا محيطًا بكل شيء يجب أن يقول فيه، ويكفوا عنه، بالغًا في الحجة، قاصرًا عن الغلو، يحفظه رؤساؤهم، حتى يقودَ به دهماءهم، ويتعهد به منهم من لا يؤبه له من عُرْض الناس، لكان ذلك إن شاء الله لرأيهم صلاحًا، وعلى من سواهم حجة، وعند الله عذرًا».

يريد أن يضع الخليفة لجيش خراسان قانونًا يعمل به قواده وجنده، حتى لا تكون الأمور فيه فوضى، ويربي تربية عسكرية يكون معها صاحب الأمر على ثقة من

بلائه كل حين. ومما قال بعد ذلك: «ومما ينظر فيه لصلاح هذا الجند ألا يولي أحدًا منهم شيئًا من الخراج، فإن ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة».

وهذا رأي ابن المقفع في هذه الرسالة أيضًا في فوضى الأحكام. قال: «ومما ينظر أمير المؤمنين فيه من أمر هذين المصرين وغيرهما من الأمصار والنواحي اختلاف هذه الأحكام المتناقضة التي قد بلغ اختلافها أمرًا عظيمًا في الدماء والفروج والأموال، فيستحل الدم والفرج بالحيرة، وهما يحرمان بالكوفة، ويكون مثل ذلك الاختلاف في جوف الكوفة، فيستحلُّ في ناحية منها ما يحرم في ناحية أخرى، غير أنه على كثرة ألوانه نافذ على المسلمين في دمائهم وحرمهم، يقضي به قضاة جائز أمرهم وحكمهم، مع أنه ليس مما ينظر في ذلك من أهل العراق وأهل الحجاز فريق إلا قد لجَّ بهم العجب بما في أيديهم، والاستخفاف ممن سواهم، فأقحمهم ذلك في الأمور التي يَشْنَع بها من سمعها من ذوي الألباب. أما من يدعي لزوم السنة منهم، فيجعل ما ليس له سنةٌ سنةً، حتى يبلغ ذلك به إلى أن يسفك الدم بغير بينة ولا حجة، على الأمر الذي يزعم أنه سنة. وإذا سُئل عن ذلك لم يستطع أن يقول: هُرِيق فيه دم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أئمة الهدى من بعده، وإذا قيل له: أي دم سفك على هذه السُّنة التي تزعمون؟ قالوا: فَعَل ذلك عبد الملك بن مروان، أو أمير من بعض أولئك الأمراء؛ وأما من يأخذ بالرأي فيبلغ به الاعتزام على رأيه أن يقول في الأمر الجسيم من أمر المسلمين قولًا لا يوافقه عليه أحد من المسلمين، ثم لا يستوحش لانفراده بذلك وإمضائه الحكم عليه، وهو مقر أنه رأي منه لا يحتج بكتاب ولا سنة. فلو رأى أمير المؤمنين أن يأمر بهذه الأقضية والسير المختلفة فتُرفع إليه في كتاب، ويُرفع معها ما يحتج به كل قوم من سُنَّة أو قياس، ثم نظر أمير المؤمنين في ذلك وأمضى في كل قضية رأيه الذي يلهمه الله ويَعْزُم له عليه، وينهى عن القضاء بخلافه، وكتب بذلك كتابًا جامعًا، لرجونا أن يجعل الله هذه الأحكام المختلطة

الصواب بالخطأ حكمًا واحدًا صوابًا؛ ورجونا أن يكون اجتماع السير قربة لإجماع الأمر برأي أمير المؤمنين وعلى لسانه، ثم يكون ذلك من إمام آخر، آخر الدهر إن شاء الله».

والرسالة كلها على هذا النحو لم يترك فيها ابن المقفع معنى يستفيد منه الخليفة في سلطانه إلا وأشار إليه فيه إشارة كافية شافية، ومن هذا الكتاب استبان أن ابن المقفع كما يحسن الاختصار أبدًا، يخرج منه إذا كان في خروجه منه فائدة، وأي فائدة أعظم من وضعه دستورًا تسير عليه مملكة آل العباس؟

ومن رسائله المختصرة إلى صديق ولدت له جاريه:

«بارك الله لكم في الابنة المستفادة، وجعلها لكم رينًا، وأجرى لكم بها خيرًا، فلا تكرهها فإنهن الأمهات والأخوات والعمات والخالات، ومنهن الباقيات الصالحات، ورب غلام ساء أهله بعد مسرتهم، ورب جارية فرحت أهلها بعد مساءتهم».

وله تعزية عن ولد:

«أعظم الله على المصيبة أجرك، وأحسن على جليل الرزء ثوابك، وعجل لك الخلف فيه، وذخر لك الثواب عليه».

وله تعزية عن ابنة:

«جدد الله لك من هبته ما يكون خلفًا لك مما رزئته، وعوضًا من المصيبة به، ورزقك من الثواب عليه أضعاف ما رزأك به منها: فما أقل كثير الدنيا في قليل الآخرة، مع فناء هذه ودوام تلك».

وله تعزية عن ابنة:

«لا ينقص الله عددك، ولا ينزع عنك نعمته التي ألبسك، وأحسن العوض لك، وجعل الخلف لك خيرًا مما رزأك، وما أعطاك خيرًا مما قبض منك»

وله:

«أما بعد؛ فإن من قضى الحوائج لإخوانه، واستوجب بذلك الشكر عليهم، فلنفسه عَملَ لا لهم، والمعروف إذا وضع عند من لا يشكره فهو زرع لا بد لزارعه من حصاده، أو لعقبه من بعده. وكتبت إليك ولحالنا التي نحن بها فيما نذكرك حاجة أول ما فيها معروف تستوجب به الشكر علينا، وتدخر به الأيادي قِبَلنا».

وله في السلامة:

«أما بعد؛ فإن مما نمق الله به مناقبك الكريمة المحمودة، الغانية عنة القول والوصف، أنك مُوضع المؤنات عن إخوانك، حَمّال عنهم أثقال الأمور، مما وضعت عنه المؤنة ارتفاعك عن الأمور التي يطأطأ إليها الكلام على ألسنة الناس، إذ أباحوه وبهرجوه، وضيعوا القول ونسوا القصد فيه، وأخذوا به في كل فن، وأصفوا بصفوته غير أهلها فيما لا ينبغي لهم من التشبيه والتوقير والتفضيل. كان من خبري بعدك أني قدمت بلد كذا فتهيأ لي بعض ما شخصت له، والمحمود على ذلك الله عز وجل، وأنا على أن يأتيني خبرك محتاج؛ فأما جملة خبري في فراقك، فقلبي مكة كل ما سواك حرام فيها».

وله جواب في السلامة:

«أما بعد؛ فقد أتاني كتاب الأمير رجعة كتابي إليك، فكان فيه تصديق الظن، وتثبيت الرأي، ودرك البغية، والله محمود، فأمتع الله بالأمير وأمتعه بصالح ما آتاه، وزاده من الخيرات مستعمرًا له فيه، مستعملًا بطاعته التي بها يفوز الفائزون، والذي رزق الله من الأمير فهو عندي عظيم نفيس، وكل الذي قِبَلي عن مكافأته فمقصر، إلا أنه ليس في النية تقصير، ولا بلوغ لشيء من الأمور إلا بتوفيق الله عز وجل ومعونته، والسلام».

وله في السلامة:

«أما بعد؛ فقد أتاني كتابك فيما أخبرتنا عنه من صلاحك وصلاح من قِبَلك، وفي الذي ذكرت من ذلك نعمة مجللة عظيمة، نحمد عليها وليها المنعم المفضل المحمود، ونسأله أن يلهمنا وإياك من شكره وذكره ما به مزيدها وتأدية حقها. وسألت أن أكتب إليك بخبرنا، ونحن من عافيته وكفايته ودفاعه على حال لو أطنبت في ذكرها، لم يكن في ذلك إحصاء للنعمة، ولا اعتراف لما يكنه الحق، فنرغب إلى الذي تزداد نعمه علينا في كل يوم وليلة تظاهرًا، ألا يجعل شكرنا منقوصًا ولا مدخولًا، وأن يرزقنا من كل نعمة كفاءها[1] من المعرفة بفضله فيها والعمل في أداء حقها، إنه ولي قدير».

وله في التعزية:

«أما بعد؛ فإن أمر الآخرة والدنيا بيد الله، هو يدبرهما ويقضي منهما ما يشاء، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، فإن الله خلق الخلق بقدرته، ثم كتب عليهم الموت بعد الحياة، لئلا يطمع أحد من خلقه في خُلد الدنيا، ووقَّت لكل شيء ميقات أجل،

(١) جزاءها.

لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون، فليس أحد من خلقه إلا وهو مستيقن بالموت، لا يرجو أن يخلصه من ذلك أحد. نسأل الله خير المنقلب. وبلغني وفاة فلان فكانت وفاته من المصائب العظام التي يُحتسب ثوابها من ربنا الذي إليه منقلبنا ومعادنا، وعليه ثوابنا. فعليك بتقوى الله والصبر، وحسن الظن بالله، فإنه جعل لأهل الصبر صلواتٍ منه ورحمة، وجعلهم من المهتدين».

وكتب:

«أما بعد، أصلحنا الله وإياك صلاحًا دائمًا يجمع لنا ولك به الفضيلة في العاجلة، والكرامة في الآجلة، فإني لا أعرف أمرًا أعظم عند أهل منفعة من أمر ترك ذكره لفضله، ولا أعلم أمرًا أحق بأن يستغني أهله بفضله عندهم عن ذكره فيما بينهم، من أمر أرسخ الله بيننا وبينك أسبابه، وثبت حقوقه، وعظم حرمته، فأبقى الله لنا ولك ما أحرزه بيننا وبينك في الدنيا، حتى نكون إخوانًا في الآخرة حين تصير الخلة عداوة بين أهلها، إلا صلة المتقين».